حث النجباء على توقير العلماء

تأليف

أبو عبد الله محمد بن عبد الحميد حسونة





حث النجباء

على توقير العلماء



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى لدار الإمام المجدد للنشر والتوزيع

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع: ٢٢٣١٦/ ٢٠٠٥

دار الإمام المجدد

دار الإمام المجدد للنشر والتوزيع

شارع الهدي المحمدي - مساكن عين شمس الشرقية - القاهرة - مصر

جوال: ٠١٠٥٢٦١١٤٩/ ٠٠٢ — ٠١٠٦٤٢٦٠٣٥/ ٠٠٢

E-Mail : emam_mujadded@yahoo.com

مقدمة

وفيها مبحثان:

المبحث الأول

تمهيد

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[1].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾[2].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾[3].

أما بعد...

لقد اصطفى الله سبحانه وتعالى صفوة من خلقه، شرفهم بالعلم،ووفقهم لسلوك سبيله والأخذ بأسباب تحصيله، ثم تكرم عليهم بأن جعلهم من حملته، ثم أمر الناس بالرجوع إليهم والأخذ عنهم، حيث جعلهم موقعين عنه، ونصبهم أدلة عليه – سبحانه– بما ورثوه من ميراث النبوة العظيم.

وإن الناظر إلى ما سجلوه لنا على مرّ الزمان وكرّ الدهور، وما رقمته أقلامهم لهو أكبر شاهد للقوم على علو مكانتهم، وسمو قدرهم، وسعة علمهم، وصدقهم وإخلاصهم.

---

(١) سورة «آل عمران» الآية (١٠٢).

(٢) سورة «النساء» الآية (١).

(٣) سورة «الأحزاب» الآية (٧٠-٧١).

هذا مع استعذابهم المشاق في تحصيله وتهذيبه، فلقد رحلوا في طلابه أزمانًا، رجالًا وركبانًا حتى حصّلوا ما يدهش العقول ويستنهض الهمم، وخلّفوا لنا النّقول، فجزاهم الله عنّا أجزل الأجور، فهؤلاء حاذوا قصبات السبق في كل فضيلة، وهم باكورة كل خير، دارت عليهم المحامد وكانوا أحق بها وأهلها - رحم الله المستقدمين منهم والمستأخرين -.

فيا ليت شعري أي فضل ظفر به هؤلاء، وأي نعيم رتعوا فيه أولئك الأخيار، بل وأي مآل سينعمون فيه -إن شاء الله- لله درهم، وطوبى لهم وهم الذين قال فيهم الإمام أحمد بن حنبل في خطبته المشهورة من كتابه[1] (الرد على الزنادقة والجهمية):

«الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله تعالى الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس وما أقبح أثر الناس عليهم! ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عنان الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم، فنعوذ بالله من فتنة المضلين»[2].

* * *

(١) وفي نسبة الكتاب للإمام أحمد -رحمه الله- كلام معروف عند أهل العلم. انظر في ذلك حاشية (سير أعلام النبلاء) (١١/ ٢٨٧)، وانظر كذلك مقدمة (الرد على الجهمية) ص (٧٢) وما بعدها. تحقيق: د.عبد الرحمن عميره. هذا وقد أثبت شيخ الإسلام وتلميذه العلم الإمام ابن القيم -رحمهما الله- وغيرهما نسبة الكتاب إلى الإمام أحمد -رحمه الله- والحمد لله.

(٢) (إعلام الموقعين) للعلامة ابن القيم (١/ ١٣-١٨) دار الكتاب العربي.

المبحث الثاني
السبب الباعث لطرق هذا الموضوع وطرحه

لقد شاع وذاع نبأ تلكم الأحرف المتمردة، والكلمات الشاردة، المنددة المنادية بـ «أن الإسلام ليس دينًا كهنوتيًا»، وزعموا أنه «ليس في الإسلام قداسة لأحد» ونددوا بنبذ «صنميّة الأشخاص» و«تقديس الأشخاص» إلى غير ذلك من العبارات[١] التي أجمع على رفض ظاهرها جماهير أهل العلم، وأسيء فهمها وتطبيقها، ومردّ ذلك يرجع إلى ضعف الحصيلة العلمية والأدبية.

إن ما نراه ونسمعه الآن من تجرؤ الطغام على العظام، هو نتيجة حتمية عن جهل بأقدار العلماء، وإفراز طبيعي لهذه الثمرة المرّة من شجرة الجهل.

ولله در العلامة ابن القيم –رحمه الله تعالى– إذ يقول:

«وهل يميّز بين العلماء والجهال، ويعرف مقادير العلماء، إلا من هو من جملتهم، ومعدود في زمرتهم»[٢]

أقول: إن شيوع مثل هذه التحذيرات وتداولها بين الناس – هكذا بإطلاق دون قيد أو إيضاح– تزهّد في القيام بالواجب تجاه علمائنا الأخيار، فلا عجب أن نرى من يخرج

---

(١) ونبذوهم بأنهم «علماء الحيض والنفاس»، وقالوا متهكمين: «متى يخرجون من المراحيض ودورة المياه»، ووصفوهم بأنهم «علماء البلاط» وأنهم «يعيشون في القرون الوسطى» و«علماء الكتب الصفراء» و «علماء البدو» و«أنهم لا يفهمون الواقع»، ورماهم البعض «بالعمالة والكفر والماسونية» وهم خير البرية، والآن يتهمون علماء الدنيا وملوك العلماء في زماننا، الشيخ الألباني والشيخ ابن باز والشيخ ابن عثيمين بالإرجاء – كيف وهم حملة لواء السنة، الذابّون عن حياضها، المنادون بضرورة التمسك بها والعضّ عليها، والمحذرون من مخالفتها –؟!! ولم يسري هذا الوباء إلى سادة الناس في زماننا فحسب، بل سبق بالقدح في سلفنا الصالح المتبعين الذين شهدت الأمة لهم بالفضل والعلم –على خطأ غير متعمد أو اجتهاد مأجور – فقال جاهل بقدرهم «هو ابن حجر، وأنا ابن زلط» ومرورًا بالتشكيك في صحة صحيح البخاري، وثالثة الأثافي القدح في الصحابي الجليل أبي هريرة –رضي الله عنه – ولم يقتصر هذا الركام العفن إلى حدّ بل سمعنا ممن ينتمي إلى الإسلام من يقدح في الأعلام –الصحابة الكرام– وهكذا تنتظم حبات هذه السلسة الشيطانية، والأيام حبلى، ولا ندري ماذا سيسلم لنا؟ ولا حول ولا قوة إلا بالله!!! والموعد القيامة. انظر «مدارك النظر في السياسة» للشيخ عبد المالك الجزائري –وفقه الله– ص (١٠٩) وغيره.

(٢) (هداية الحيارى) للعلامة ابن القيم ص (٢٤٣).

علينا بالقدح فيهم، والدعوة إلى عدم الترحم عليهم لوقوع بعض الهنات منهم- والتي لا يخلو منها بشر خلا الأنبياء لعصمتهم-

ومن سبر أحوال بعض ممن يطلقون هذه العبارات في هذه الآونة وجدهم قد جفوا الصراط وتنكبوا سبلًا شتى تنأ بهم عن الجادة، وتراهم يزهدون في العلم، والأخذ عن أهله بتأويلات وحجج ما أحوجها إلى حجج، ولربما ذهلوا عن هذه الحقيقة فزهدوا الناس في العلماء، وربما آل ذلك إلى الزهد في الأخذ عنهم -وهذا من لازمه كما لا يخفى- فماذا يبقى بعد ذلك من خير؟!!

ثم خلف من بعدهم خلوف لم يرفعوا لهم رأسًا، ولم يقيموا لهم وزنًا، فتبجحوا بمخالفتهم بل والكلام فيهم والطعن عليهم والنيل من أعراضهم وتبعهم على ذلك ما ليس له في العلم «صامت ولا ناطق»[1] [2].

---

(١) يقال: «وما له صامت ولا ناطق» الصامت: الذهب والفضة، والناطق: الحيوان: الإبل والغنم. انظر (لسان العرب) (٢/ ٥٥).

(٢) والغريب العجيب أنك تجدهم يتلقون العلم عنهم، ويستقون منهم معارفهم، ويتتلمذون علي كتبهم، ثم تراهم مع ذلك يتنكرون لهم، ويكشرون عن وجوه كالحة، ويشهرون أسلات ألستهم عليهم ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝﴾ في ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝﴾ وتكشف ما في الضمائر. وأكثر ما يقع هذا في زماننا كان مع العلامة الألباني الذي هو حقيق بقول القائل -لله دره-:

عتا في عرضه قوم سلاط ... لهم من نثر جوهره التقاط
هم حسدوه لما لم ينالوا ... مناقبه فقد فسقوا وشاطوا
وكانوا عن طرائقه كسالى ... ولكن في أذاه لهم نشاط

وآخر -وقد أحسن-:

قالوا: ألا كلمة في الشيخ تنصفه ... فقد طغى الجور حتى في الموازين
شنت عليه حروب لا يسوغها ... عقل يرى الحق في ظل البراهين
فقلت: فوق ما يبلّغه ... محدث الشام عن خير الأنام
وردة الجيل للوحي الجليل يد ... ما إن يكابر فيها غير مفتون
وحسبه أنه هزّ العقول وقد ... باتت في الحجر والتقليد في هونه
فأصبحت ذات وعي ليس يعجزه ... التمييز ما بين مفروض ومسنون

إلى أن قال:

فما عسى أن يقول الشعر في رجل ... يدعوه حتى عداه ناصر الدين
وأي خير إذا فرد تجاهله ... وقد فشا فضله بين الملايين

وكانت نتيجة ذلك أن وجدنا علماء يجلسون ولا يجلس إليهم، مع سعة علمهم، وسلامة منهجهم، وموفور فضلهم، وآخرون سادة يتملقون الطلبة شفقةً عليهم، وحرصًا على تعليمهم ما يصلح لهم أمر دنياهم وآخرتهم وهم مع ذلك - رضي الله عنهم - أطول الناس أعناقًا[(١)].

والظاهر أن هذه الصيحة ليست وليدة هذه الأزمان، ولا ثمرة هاتيك الأيام بل شكا منها إمام كبير وهو مؤرخ الإسلام الحافظ شمس الدين الذهبي حيث قال في مثلهم: «قوم انتموا إلى العلم في الظاهر، ولم يتقنوا منه سوى نزر يسير، أوهموا به أنهم علماء فضلاء، ولم يدر في أذهانهم قط أنهم يتقربون به إلى الله؛ لأنهم ما رأوا شيخًا يقتدى به في العلم، فصاروا همجًا رعاعًا»[(٢)].

حتى آل الأمر إلى ما ذكره خطيب أهل السنة والجماعة الإمام أبو محمد ابن قتيبة - رحمه الله - إذ يقول فيه وفي أهل زمانه «... وقد كنا زمانًا نعتذر عن الجهل، فقد صرنا الآن نحتاج إلى الاعتذار من العلم، وكنا نأمل شكر الناس بالتنبيه والدلالة، فصرنا نرضى بالسلامة، وليس هذا بعجيب مع انقلاب الأحوال، ولا ينكر مع تغير الزمان، وفي الله خلف، والله المستعان»[(٣)].

وقال أيضًا - رحمه الله -:

«ونعوذ بالله من نزغ الشيطان ومصايده، ولطيف خدعه ومكايده، فقد صدّق على هذه الأمة ظنّه، وأجلب عليهم بخيله ورجله، وقعد لهم رصدًا بكل مرصد، ونصب لهم شركًا بكل ريع، وطفق لغوايتهم بكل شبهة، فأصبح الناس إلا قليلًا ممن عصم الله مفتونين، وفيما يوبقهم خائضين، وعن سبيل نجاتهم ناكبين، ولما وضعه الله عنهم متكلفين، وعمّا كلفهم معرضين. إن دعوا أنفوا، وإن وعظوا هزؤوا، وإن سئلوا

= انظر (ردع الجاني المتعدي على الألباني) لأبي محمد طارق بن عوض الله بن محمد ص (٣).

(١) العرب تكني بطول العنق عن أشراف القوم وسادتهم. قاله القرطبي في (الجامع) (٣/ ٦/ ٢٣٠).

(٢) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٧/ ١٥٣).

(٣) (إصلاح الغلط في غريب الحديث) لأبي عبيد، والنقل عن (نماذج من رسائل لأئمة السلف وأدبهم العلمي) عبدالفتاح أبو غدة - عفا الله عنه - ص (٥٥).

تعسفوا، وإن سألوا أعنتوا، قد فرقوا الدين وصاروا شيعا، فهم يتنابزون بالألقاب، ويتسابّون بالكفر، ويتعاضون بالنحل، ويتناصرون على الهوى، وعاد الإسلام غريبًا كما بدأ. فماذا يعجب من سلّة السّيف، وشمول الخوف، ونقص الأموال والأنفس، وهل يتوقع بعد تزيّدنا من الغواية إلا التزيّد من البلاء؟! حتى يحكم الله بما شاء بيننا وهو خير الحاكمين»[١].

فما أشبه الليلة بالبارحة، ولكل قوم وارث، فلقد كانت شكواه -رحمه الله- في زمن توافر العلماء، وازدهار العلم، ووجود الناصر المعين، وقلة الشواغل والصوارف فكيف بنا نحن؟!!![٢].

ولسنا في هذا الباب نغلو فيهم فنرفعهم فوق قدرهم مدعين لهم عصمة، كلا، ولسنا نبرئهم وننزههم عن الخطأ حاشا، ولكنا نعتقد أنهم بشر يقع ذلك منهم، ومع هذا نقول أن الفيأة في حقهم أسرع، والأوبة أسبق، والمغفرة لهم أقرب، لما استحفظوا من العلم، وفضلوا به.

كما نعتقد فيهم أنهم لا يتعمدون الخطأ ولم يقصدوا مخالفة، إنما أدّاهم إلى ذلك اجتهاد، والاجتهاد قد يخطئ، وهم مع هذا بين أجر أو أجرين والواجب علينا ألا نتبعهم على خطئهم بل ندور مع الدليل وندع الكلمة لأقرانهم أو من هم فوقهم، والأمة لا تجتمع على ضلالة والحمد لله.

وأقول مع ما سبق إننا نعتقد فيهم -أيضًا- أنهم ليسوا كسائر البشر، بل فوقهم بما

---

(١) (الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة) ص (٦).

(٢) فهذا الذي ذكره، في زماننا فاشي، وفي مجالس البعض ذائع، مع غلبة الجهل، وقلة العلماء أهل الاتباع، وبعد الناس عن ميراث النبوة، فتولّد عن هذا وذاك جيل تائه متخبط بين الشهوات والشبهات من جهة، وبين الأهواء والأحزاب المتنوعة والجماعات المتناحرة -التي رامت خيرًا ولم تبلغه لتنكبها طريقًا غير مسلوك، وما علمت أنها زادت في الخرق على الراقع- حتى وجدنا في زماننا للشيطان عبدة لهم طقوس علنيّة، وحقوق مرعيّة، وآداب -زعموا-.

فلئن شكا النجباء في كل زمان فلا أظن أن تطفح الأفهام في يوم من الأيام بمثل هذا القيح القذر المستقذر، والركام المتراكم من الأعفان، والأيام حبلى، ولا حول ولا قوة لنا إلا بالله. ولكن إيماننا بالله أعظم، وثقتنا بموعوده أوثق، ويقيننا بالأخبار الصادقة في نصرة الله تعالى لأوليائه راسخة، واعتقادنا بأن الطائفة المنصورة باقية، وأن حزب الله هم المفلحون الغالبون ولا بدّ، وعزائنا بقاء الخيرية في الأمة إلى قيام الساعة، والحمد لله على كل حال.

وهبههم الله من علم، وحملوا من ميراث النبوة، وبها أثبت لهم على لسان الشرع من الثناء والمدح وعلو المكانة ورفعة المنزلة.

فإياكم -رحمكم الله- وإهدار مكانتهم في نفوسكم خاصة، وفي نفوس الناس عامة فـ «إذا كان العلماء ورثة علوم الأنبياء، فإنهم أيضًا ورثوا قدرًا لائقًا بهم من الاعتبار والمكانة في الشريعة، فكان واجبًا على الأمة من بعد طاعتهم في طاعة الله، وموالاتهم، واحترامهم، والسعي إليهم، والأخذ عنهم»(١).

من أجل ذلك حدا بي حادي النصح في وضع هذه الأسطر مذكرًا نفسي وإخواني بالواجب علينا تجاه هؤلاء السادة حاثًا فيها إلى إجلالهم واحترامهم وتعظيمهم وفق ما جاء به الشرع المطهر.

ويأتي هذا البحث مكملًا لجهود سابقة، أبرزت جوانب شتى من العلم، في زمن الحاجة، حتى تنجو السفينة، ويستقيم البناء، ويظهر السبيل، ويعلو الدين.

* * *

---

(١) (قواعد في التعامل مع العلماء) للشيخ عبد الرحمن بن معلا اللويحق ص (٨).

الباب الأول

من وصايا السلف فِي لزوم الأدب عمومًا ومع العلماء خصوصًا

وفيه مباحث:

أن الأُلى نفروا لجمع الأقوال في الآداب، وضمنوها مؤلفاتهم بل وأفردوا لها أبوابًا مستقلة في مصنفاتهم، الأمر الذي ينبأ عن الأهمية البالغة للآداب الشرعية والسير الأخلاقية، لما لها الأثر البالغ في المجتمعات عمومًا، وفي مجتمعات المسلمين خصوصًا، مجتمعات الهدى والرشد والتعاون والمحبة والإيثار، ولما كان ذلك كذلك كان التعبير النبوي السامي الخالد، والنداء المحمدي العالي، متمثلًا في قوله صلى الله عليه وسلم: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»[١] شاف واف في بيان ما للأخلاق من منزلة في شريعتنا الخالدة.

* * *

(١) (سلسلة الأحاديث الصحيحة) برقم (٤٥) وقال الشيخ الألباني: «رواه البخاري في (الأدب المفرد) وابن سعد في (الطبقات) والحاكم، وأحمد، وابن عساكر».

المبحث الأول

التلازم بين الأدب[1] والعلم

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ صلى الله عليه وسلمسَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[3].

وعن حماد بن زيد - رحمه الله - قال:

«كنا عند أيوب، فسمع لغطًا، فقال: ما هذا اللغط؟ أما بلغكم أن رفع الصوت

(١) كلمة «أدب» تطلق على كل فضيلة من الفضائل التي يتصف بها الإنسان، كما تطلق على معنى اللباقة، وحسن تناول الأمور، والرفق بها، كما أطلقت كلمة «أدب» على التهذيب والتعليم، وعلى الدعوة إلى الطعام ٠٠٠وقد استعمل العرب كلمتي «أدب» و «آداب» في أمور مخصوصة إذا ما أضيفت إليها دلت على استحسانها من ذلك أدب الطعام والشراب وأدب الكلام وأدب القضاء.. إلخ.

واكتسبت كلمة «أدب» معنى خلقيًا يدل على الصفة الكريمة وطيب النشأة ».

انظر (دائرة المعارف الإسلامية) باب الهمزة (١/ ٣٠) - شركة سفير.

وقيل: «الأدب: ملكة تعصم من قامت به عما يشينه» انظر (تاج العروس) (١/ ٢٩٦).

وقيل: «سمي أدبًا؛ لأنه يأدب الناس إلى المحامد،وينهاهم عن المقابح».

وقال أبو زيد الأنصاري: الأدب يقع على كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل» انظر (موسوعة نضرة النعيم) (٢/ ١٤١).

وقيل: «الأدب هو اجتماع خصال الخير في العبد، وهو على ثلاثة أنواع: أدب مع الله سبحانه، وأدب مع رسوله صلى الله عليه وسلم وشرعه، وأدب مع خلقه» (مدارج السالكين) للعلامة ابن القيم (٢/ ٣٧٥).

وقالوا في بيان أن الشريعة هي ينبوع الأدب ومصدره والباعث على تجدده ونموه: «من لا شريعة له، لا إيمان له ولا توحيد، والشريعة موجبة للأدب».

انظر (الحقيقة الشرعية) لمحمد بن عمر بازمول ص (٤١).

(٢) سورة «القلم» الآية (٤).

(٣) سورة «الحجرات» الآيات (١-٤).

عند الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كرفع الصوت عليه في حياته»[(١)].

وقال حسين المعلم -رحمه الله-:

«كنا عند محمد بن سيرين يتحدث، فيضحك، فإذا جاء الحديث خشع»[(٢)].

وفي قول الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾[(٣)].

- قال الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبري -رحمه الله-:

«نهي من الله للمؤمنين أن يأتوا من الانصراف عنه في الأمر يجمع جميعهم ما يكرهه، والذي بعده وعيد للمنصرفين بغير إذنه عنه، فالذي بينهما بأن يكون تحذيرًا لهم سخطه أن يضطره إلى الدعاء عليهم أشبه من أن يكون أمرًا لهم بما لم يجر له ذكر من تعظيمه وتوقيره بالقول والدعاء»[(٤)].

- وقال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-:

«عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: كانوا يقولون يا محمد ..يا أبا القاسم فنهاهم الله -عزّ وجلّ- عن ذلك إعظامًا لنبيه صلى الله عليه وسلم. وقال قتادة -رحمه الله-: «أمر الله أن يهاب نبيه صلى الله عليه وسلم وأن يبجلّ وأن يعظم وأن يسوّد». وقال زيد ابن أسلم -رحمه الله-: «أمرهم الله أن يشرفوه»[(٥)].

- في «صحيح الإمام مسلم» من حديث أبي أيوب -رضي الله عنه- أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل عليه، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم في السّفل، وأبو أيوب في العلو، قال: فانتبه أبو أيوب ليلة فقال: نمشي فوق رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنحوا، فباتوا في جانب، ثم قال للنبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **«السفل أرفق بنا»**

---

(١) (الجامع) للخطيب البغدادي (١/ ١٩٥).

(٢) (الجامع) للخطيب البغدادي (١/ ٤١٢).

(٣) سورة «النور» الآية (٦٣).

(٤) (تفسير الإمام الطبري) (١٠/ ٢٣٥).

(٥) (تفسير القرآن العظيم) للحافظ ابن كثير (٣/ ٣١٨).

فقال: لا أعلو سقيفة أنت تحتها»، فتحول النبي صلى الله عليه وسلم في العلو، وأبو أيوب في السّفل ...

قال الإمام النووي - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث:

«وأما كراهة أبي أيوب فمن الأدب المحبوب الجميل، وفيه: إجلال أهل الفضل، والمبالغة في الأدب معهم»[(١)].

- **وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال:**

«كانت أبواب النبي صلى الله عليه وسلم تقرع بالأظافير»[(٢)].

- **وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال:** «قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**أخبروني بشجرة مثلها مثل المسلم، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، لا تحت ورقها**» فوقع في نفسي النخلة، فكرهت أن أتكلم، وثم أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - ...»[(٣)] الحديث.

- **وعن سمرة بن جندب - رضي الله عنه - قال:**

«لقد كنت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم غلامًا، فكنت أحفظ عنه، فما يمنعني من القول إلا أن ها هنا رجالًا هم أسن مني»[(٤)].

- **وقال الإمام ابن شهاب الزهري - رحمه الله -:**

«إن هذا العلم أدب الله - تعالى- الذي أدب به نبيه صلى الله عليه وسلم وأدب النبي- صلى الله عليه وسلم - أمته، أمانة الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ليؤديه على ما أدى إليه»[(٥)].

- **قال العلامة ابن القيم - رحمه الله -:**

«وأدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره، فما

---

(١) (صحيح الإمام مسلم) كتاب الأشربة «باب إباحة أكل الثوم وأنه ينبغي لمن أراد خطاب الكبار تركه وكذا ما في معناه» برقم (٢٠٥٣).

(٢) رواه البخاري في (الأدب المفرد) رقم (١٠٨٠) وصححه العلامة الألباني كما في (الصحيحة) برقم (٢٠٩٢).

(٣) (صحيح البخاري) كتاب العلم «باب قول المحدث: حدثنا، أو أخبرنا، أو أنبأنا» برقم (٦١).

(٤) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٨/ ٤٢٠) والأثر متفق عليه - كما في (رياض الصالحين) ص (١٨٥) تحقيق العلامة الألباني.

(٥) (الجامع) للخطيب (١/ ٧٨).

استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب»[(١)].

- قال الإمام النووي- رحمه الله -:

«وينبغي أن ينظر معلمه بعين الاحترام، ويعتقد كمال أهليته، ورجحانه على أكثر طبقته، فهو أقرب إلى انتفاعه به».

- قال الخطيب البغدادي - رحمه الله -:

«ومن تعظيم العلم تعظيم من يتعلم منه ويؤخذ عنه العلم، ويجب على طالب العلم أن يستمع العلم والحكمة بالتعظيم والإجلال والحرمة»[(٢)].

- وقال الحافظ شمس الدين الذهبي - رحمه الله -:

«ومن الأدب أن لا يحدث مع وجود من هو أولى منه لسنه وإتقانه، وأن لا يحدث بشيء يرويه غيره أعلى منه، وأن لا يغش المبتدئين، بل يدلهم على المهم، فالدين النصيحة»[(٣)].

- قال الحافظ أبو عمر ابن الصلاح - رحمه الله -:

«ينبغي للمستفتي أن يحفظ الأدب مع المفتي ويبجّله في خطابه وسؤاله»[(٤)].

- وقال العلامة ابن جماعة الكناني - رحمه الله -:

«وليتحفظ في مخاطبة الشيخ بما يعتاده بعض الناس في كلامه، ولا يليق خطابه به»[(٥)].

وقال - رحمه الله - أيضًا:

«وينبغي أن لا يقطع على الشيخ كلامه -أي كلام كان- ولا يسابقه فيه ولا يساوقه[(٦)] بل يصبر حتى يفرغ الشيخ من كلامه ثم يتكلم، ولا يتحدث مع غيره

---

(١) (مدارج السالكين) (٢/ ٤٠٧) و(موسوعة نضرة النعيم) (١٦٩).

(٢) (مختصر نصيحة أهل الحديث) للخطيب البغدادي ص (١٦٢).

(٣) (الموقظة) للحافظ الذهبي ص (٦٦).

(٤) (أدب المفتي والمستفتي) ص (١٦٨).

(٥) (تذكرة السامع والمتكلم) لابن جماعة الكناني تحقيق السيد محمد هاشم الندوي.

(٦) المساوقة: المتابعة. انظر (لسان العرب) لابن منظور (١٠/ ١٦٦).

والشيخ يتحدث معه أو مع جماعة المسجد»[(١)].

- **قال العلامة السخاوي** -رحمه الله-:

«واحذر من معارضته، وما يدعو إلى الرفق عليه ورد قوله، فما انتفع من فعل ذلك، واعتقد كماله [(٢)] فذلك أعظم سبب لانتفاعك به».

وسيّده، وقم له إذا قدم عليك، واقضِ حوائجه كلها جليلها وحقيرها، وخذ بركابه، وقبّل يده، ووقّر مجلسه، واحتمل غضبه، واصبر على جفائه، وارفق به، ولا تتثاقل بالتطويل، فيقلل منه، ويملّ من الجلوس، بل تحرّ ما يرضيه فالاضجار كما قال الخطيب: «يغير الأفهام، ويفسد الأخلاق، ويحيل الطباع» ثم ساق عن هشيم -رحمه الله- قال:

«كان إسماعيل بن أبي خالد من أحسن الناس خلقًا، فلم يزالوا به حتى ساء خلقه»[(٣)].

- قال العلامة ابن جماعة الكناني -رحمه الله- في سياق كلامه عن آداب الطالب مع معلمه وقدوته، وما يجب عليه من عظيم حرمته:

«أن ينقاد لشيخه في أموره، ولا يخرج عن رأيه وتدبيره، بل يكون معه كالمريض مع الطبيب الماهر، فيشاوره فيما يقصده، ويتحرى رضاه فيما يعتمده، ويبالغ في حرمته، ويتقرب إلى الله تعالى بخدمته، ويعلم أن ذله لشيخه عزّ، وخضوعه له فخر، وتواضعه له رفعة».

وقال أيضًا : «أن ينظره بعين الإجلال ويعتقد فيه وجه الكمال البشري فإن ذلك أقرب إلى نفعه به»[(٤)].

وقال -رحمه الله-: «وينبغي أن لا يخاطب شيخه بتاء المخاطب وكافه (قلت، سمعتك) ولا يناديه من بعد، بل يقول يا سيدي، ويا أستاذي»[(٥)].

- **وقال الخطيب البغدادي** -رحمه الله-:

«يقول أيها العالم وأيها الحافظ.. ونحو ذلك وما تقولون في كذا؟ وما رأيكم في

---

(١) (تذكرة السامع) لابن جماعة الكناني ص (١٥٩).

(٢) أي: الكمال البشري المعتبر شرعًا.

(٣) (فتح المغيث) للعلامة السخاوي (٣/ ٢٨٩) بتصرف يسير.

(٤) (تذكرة السامع والمتكلم) لابن جماعة الكناني ص (١٣٧).

(٥) (تذكرة السامع والمتكلم) لابن جماعة الكناني ص (١٣٦).

كذا؟ وشبه ذلك، ولا يسميه في غيبته أيضًا باسمه إلا مقرونًا بما يشعر بتعظيمه كقوله: قال الشيخ أو الأستاذ وكذا، وقال شيخنا أو قال حجة الإسلام..أو نحو ذلك»[١].

وقال العلامة ابن جماعة -رحمه الله-:

«أن يجلس بين يدي الشيخ جلسة الأدب، كما يجلس الصبي بين يدي المقري أو متربعًا بتواضع وخضوع وسكون وخشوع، ويصغي إلى الشيخ ناظرًا إليه، ويقبل بكليته عليه، متعقلًا لقوله، بحيث لا يحوجه إلى إعادة الكلام مرة ثانية، ولا يلتفت من غير ضرورة، ولا يسند بحضرة الشيخ إلى حائط أو مخدة أو درابزين[٢] أو يجعل يده عليها.ولا يعطي الشيخ جنبه أو ظهره، ولا يعتمد على يده إلى ورائه أو جنبه، ولا يكثر كلامه من غير حاجة، ولا يحكي ما يضحك منه، أو ما فيه بذاءة، أو يتضمن سوء مخاطبة، أو سوء أدب»[٣].

وقال أيضًا -رحمه الله-:

«أن يحسن خطابه مع الشيخ قدر الإمكان، ولا يقول له: «لم» ولا «فلم» ولا «من نقل هذا!»، ولا «أين موضعه» وشبه ذلك فإن أراد استفادته تلطف في الوصول إلى ذلك»[٤].

وقال العلامة الماوردي -رحمه الله تعالى-:

«ولا يظهر له الاستكفاء منه والاستغناء عنه، فإن في ذلك كفرًا لنعمته واستخفافًا بحقه ...وهذه من مصائب العلماء، وانعكاس حظوظهم أن يصيروا عند من يعلمونه مستجهلين، وعند من قدموه مسترذلين.

وقال صالح بن عبد القدوس:

وإن عناءً أن تعلم جاهلًا ... فيحسب أهلًا أنه منك أعلم[٥]

---

(١) (الجامع) للخطيب البغدادي (١/ ١٨٣).

(٢) قوائم منتظمة يعلوها متكأ.

(٣) في (تذكرة السامع والمتكلم) لابن جماعة ص (١٤٧) قال أحمد بن إسحاق الفقيه: «ما رأيت في المحدثين أهيب من إبراهيم بن أبي طالب، كنا نجلس كأن على رؤوسنا الطير، لقد عطس أبو بكر العنبرة فأخفض عطاسه، فقلت له سرًا: لا تخف فلست بين يدي الله تعالى».

(٤) (تذكرة السامع والمتكلم) لابن جماعة الكناني ص (١٥١-١٥٢).

(٥) (أدب الدنيا والدين) للماوردي ص (٩٥) في سياق حديثه على (أدب المتعلم).

قال أمير المؤمنين سفيان الثوري -رحمه الله-:

«إذا رأيت الشاب يتكلم عند المشايخ، وإن كان قد بلغ من العلم مبلغًا، فآيس من خيره، فإنه قليل الحياء»[1].

ومن هنا تضافرت أقوالهم وتكاثرت بضرورة لزوم الأدب مع العلم وأهله فمن ذلك قولهم:

* * *

(١) انظر (المدخل) للإمام البيهقي ص (٣٨٨) والنقل عن (الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام) ص (٢٩٤).

المبحث الثاني
حثُّ السلف الصالح على لزوم الأدب مع العلماء

- **كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول:**

«تأدبوا ثم تعلموا».

- **قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -:**

«من حق العالم عليك أن تسلم على القوم عامة، وتخصه بالتحية، وأن تجلس أمامه، ولا تشير من عنده بيد، ولا تغمز بعينيك غيره، ولا تقولن: قال فلان خلاف قوله، ولا تغتابنّ عنده أحدًا، ولا تطلبن عثرته، فإن زلّ قبلت معذرته، وعليك أن توقّره لله تعالى، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته، ولا تسار في مجلسه، ولا تأخذ بثوبه، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تشبع من طول صحبته فإنما هو كالنخلة تنتظر متى يسقط منها شيء»[(١)].

- **وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -:**

«اطلب الأدب فإنه زيادة في العقل، ودليل على المروءة، ومؤنس في الوحدة، وصاحب في الغربة، ومال عند القلة»[(٢)].

- **وأخذ ابن عباس - رضي الله عنهما - مع جلالته ومرتبته بركاب زيد بن ثابت الأنصاري وقال:** «هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا».

-**وقال الحسن - رحمه الله -:** «كان الرجل ليخرج في أدب واحد السنتين والسنين»[(٣)].

- **وقال محمد بن سيرين - رحمه الله -:** «كانوا يتعلمون الهدي كما يتعلمون العلم»[(٤)].

- **وقال إبراهيم بن حبيب - رحمه الله -:** قال لي أبي: «يا بني إئت الفقهاء والعلماء، وتعلم منهم،وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم»[(٥)].

---

(١) (الجامع) للخطيب البغدادي (١/ ١٨٨).

(٢) (إرشاد الطالب لتحقيق أهم المطالب) للشيخ سعيد عبد العظيم ص (١٥).

(٣) (العلم بين يدي العالم والمتعلم) للشيخ جاسم بن محمد مهلهل -عفا الله عنه- ص (٥٠).

(٤) (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع) (١/ ٧٩).

(٥) (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع) (١/ ٨٠).

- **وقال الإمام مالك - رحمه الله - عن نفسه:**

«وكانت أمي تعممني، وتقول لي: اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه»[(١)].

- **وقال الإمام ابن وهب - رحمه الله -:**

«ما نقلنا من أدب مالك أكثر مما تعلمنا من علمه»[(٢)].

- **وقال الإمام مالك - رحمه الله -:**

«ما جالست سفيها قط»[(٣)].

- **وعن خالد بن نزار - رحمه الله - قال:**

«سمعت مالكًا بن أنس يقول لفتى من قريش: يا ابن أخي، تعلم الأدب قبل أن تعلم العلم»[(٤)].

- **وقال النخعي - رحمه الله -:**

«كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه، نظروا إلى سمته وصلاته وإلى حاله ثم يأخذوا عنه»[(٥)].

- **قال أبو الحسن المدائني - رحمه الله -:**

«خطب زياد ذات يوم على منبر الكوفة فقال: أيها الناس: إني بت ليلتي هذه مهتمًا بخلال ثلاث: بذي العلم وبذي الشرف وبذي السن، رأيت أن أتقدم إليكم فيهن بالنصيحة، رأيت إعظام ذوي الشرف، وإجلال ذوي العلم، وتوقير ذوي الأسنان، والله لا أوتى برجل ردّ على ذي علم ليضع بذلك منه إلا عاقبته، ولا أوتى برجل ردّ على ذي شرف ليضع بذلك من شرفه إلا عاقبته، ولا أوتى برجل ردّ على ذي شيبة ليضعه بذلك إلا عاقبته، وإنما الناس بأعلامهم، وعلمائهم، وذوي أسنانهم»[(٦)].

---

(١) (ترتيب المدارك بتقريب المسالك) للقاضي عياض (١/ ٥٤).

(٢) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٨/ ١١٣).

(٣) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٨/ ١١٣).

(٤) (حلية الأولياء) للحافظ أبي نعيم (٦/ ٣٣٠).

(٥) (إرشاد الطالب لتحقيق أهم المطالب) سعيد عبد العظيم ص (١٥).

(٦) (جامع بيان العلم) للحافظ ابن عبد البر (١/ ٢٣٤).

- **وقال ابن المبارك** - رحمه الله -:

«لا ينبل الرجل بنوع من العلم ما لم يزين علمه بالأدب».

وقال - رحمه الله -: «طلبت العلم فأصبت شيئًا منه، وطلبت الأدب فإذا أهله قد بادوا»[(١)].

- **وقال البلخي** - رحمه الله -: «أدب العلم أكثر من العلم»[(٢)].

- **وقال مخلد بن الحسين** - رحمه الله -:

«نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من الحديث»[(٣)].

- **وعن شعبة** - رحمه الله - **قال:**

«ما كتبت عن أحد حديثًا إلا وكنت له عبدًا ما حييت»[(٤)].

- قال أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري - رحمه الله -:

«كانوا لا يخرجون أبناءهم لطلب العلم حتى يتأدبوا ويتعبدوا عشرين سنة»[(٥)].

- **وقال عبد الله بن المبارك** - رحمه الله -:

«طلبت الأدب ثلاثين سنة، وطلبت العلم عشرين سنة، وكانوا يطلبون الأدب ثم العلم»[(٦)].

- **وقال** - رحمه الله - **أيضًا:** «كاد الأدب يكون ثلثي العلم»[(٧)].

- **قال أحمد بن أبي الحواري:** «جاء رجل من بني هاشم إلى عبد الله بن المبارك ليسمع منه، فأبى أن يحدثه. فقال الشريف لغلامه: قم فإن أبا عبد الرحمن لا يرى أن يحدثنا، فلما قام ليركب جاء ابن المبارك ليمسك بركابه، فقال: يا أبا عبد الرحمن تفعل

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) (شرح الأدب المفرد) (٢/ ٣٩٢)، و(الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع) للخطيب البغدادي (١/ ٨٠)

(٤) (فتح المغيث) للسخاوي (٣/ ٢٨٩)، و(جامع بيان العلم) (١/ ١٢٧)، و(الحلية) لأبي نعيم (٧/ ١٥٤)، و(سير أعلام النبلاء) (٧/ ٢٠٨)، و(الجامع) للخطيب (١/ ١٩١).

(٥) (من هدي السلف في طلب العلم) للدكتور: محمد بن مطر الزهراني - ص (٢٣)، وقال انظر (حلية الأولياء) (٦/ ٣٦١).

(٦) (غاية النهاية في طبقات القراء) لابن الجزري (١/ ٤٤٦).

(٧) (صفة الصفوة) لابن الجوزي (٤/ ١٢٠).

هذا ولا ترى أن تحدثني، فقال أذل لك بدني ولا أذل لك الحديث»[١].

- **وقال بعضهم:** «الزم الأدب ظاهرًا وباطنًا، فما أساء أحد الأدب في الظاهر إلا عوقب ظاهرًا، وما أساء أحد الأدب باطنًا إلا عوقب باطنًا»[٢].

- **وقد كان بعض السلف إذا ذهب إلى شيخه يقول:**

«اللهم اخف عيب شيخي عني ولا تذهب بركة علمه عني»[٣].

- **يذكر أن الشافعي - رحمه الله - عوتب في تواضعه للعلماء فقال:**

أهنت لهم نفسي فهم يكرمونها ... ولن تكرم النفس التي لا تهينها

-وقال الإمام أحمد بن حنبل لخلف الأحمر -رحمهما الله-:

«لا أقعد إلا بين يديك، أمرنا أن نتواضع لمن نتعلم منه»[٤]

- **وعن أبي جعفر - رحمه الله - قال:**

«كان أحمد من أحيى الناس، وأكرمهم ، وأحسنهم عشرة، وأدبًا، كثير الإطراق، لا يسمع منه إلا المذاكرة للحديث وذكر الصالحين، في وقار وسكينة ولفظ حسن، وإذا لقيه إنسان بشّ به، وأقبل عليه، وكان يتواضع للشيوخ كثيرًا، وكانوا يعظمونه»[٥].

- **قال عبد الله بن الإمام أحمد -رحمهما الله-:**

«سمعت أبي سئل لِمَ لَمْ تسمع من إبراهيم بن سعد كثيرًا وقد نزل في جوارك بدار عمارة؟ فقال: حضرنا مجلسة مرة فحدثنا، فلما كان المجلس الثاني رأى شبابًا تقدموا بين يدي الشيوخ فغضب وقال: والله لا حدثت سنة، فمات ولم يحدث»[٦].

- **قال يوسف بن الحسين - رحمه الله -:** «بالأدب تفهم العلم»[٧].

---

(١) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٨/ ٤٠٤).

(٢) (مدارج السالكين) (٢/ ٣٩٧) و(موسوعة نضرة النعيم) (١٦٩).

(٣) (تذكرة السامع والمتكلم) لابن جماعة ص (٨٨).

(٤) هو أبو محرز بن حبان، أحد أئمة اللغة، توفي في حدود الثمانية ومئة، والنقل عن (بغية الدعاة) ص (٢٤٢).

(٥) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١١/ ٣١٧-٣١٨).

(٦) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١١/ ٣١٧).

(٧) (اقتضاء العلم العمل) للخطيب ص (١٧٠).

- **قال أبو النضر الفقيه سمعت البوشنجي** -رحمه الله- **يقول:**

«من أراد العلم والفقه بغير أدب فقد اقتحم أن يكذب على الله ورسوله»[(١)].

- **قال عبد الغافر** -رحمه الله-: «ولقد زرته -أي الغزالي- مرارًا وما كنت أحدس في نفسي مع ما عهدته عليه من الزعارة والنظر إلى الناس بعين الاستخفاف كبرا وخيلاء واعتزازا بما رزق من البسطة والنطق والذهن وطلب العلو - أنه صار على الضدّ وتصفى عن تلك الكدورات، وكنت أظنه متلفعًا بجلباب التكلف، متنمسًا بما صار إليه، فتحققت بعد السبر والتنقير أن الأمر على خلاف المظنون وأن الرجل أفاق بعد الجنون»[(٢)].

- **قال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي** -رحمه الله-: «ولقيت عبد الوهاب الإنماطي فكان على قانون السلف، لم يسمع في مجلسه غيبة، ولا كان يطلب أجرًا على سماع الحديث، وكنت إذا قرأت عليه أحاديث الرقائق بكى واتصل بكاؤه، فكان -وأنا صغير السنّ حينئذ- يعمل بكاؤه في قلبي، ويبني قواعد الأدب في نفسي. وكان على سمت المشايخ الذين سمعنا أوصافهم في النقل.

ولقيت الشيخ أبا منصور الجواليقي، فكان كثير الصمت، شديد التحري فيما يقول، متقنًا محققًا، وربما سئل المسألة الظاهرة التي يبادر بجوابها بعض غلمانه فيتوقف فيها حتى يتيقن، وكان كثير الصوم والصمت فانتفعت برؤية هذين الرجلين أكثر من انتفاعي بغيرهما، ففهمت من هذه الحالة أن الدليل بالفعل أرشد من الدليل بالقول»[(٣)].

- **وقال العلامة أبو بكر بن العربي المالكي** -رحمه الله- **مستدركًا على شيخه الغزالي بعض المسائل:** «...وهذه وهلة لا لعًا لها[(٤)] ومزلة لا تماسك فيها، ونحن وإن كنا نقطة من بحره، فإنا لا نرد عليه إلا بقوله».

---

(١) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١٣/ ٥٨٦).

(٢) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١٩/ ٣٢٤).

(٣) (صيد الخاطر) لأبي الفرج ابن الجوزي ص (١٤٣-١٤٤).

(٤) قال أبو عبيد -رحمه الله-: من دعائهم «لا لعًا لفلان: أي لا أقامه الله. والعرب تدعوا على العاثر من الدواب إذا كان جوادًا بالتعس فتقول تعسًا له، وإن كان بليدًا كان دعاؤهم له إذا عثر: لعًا له» انظر (حاشية سير أعلام النبلاء) (١٩/ ٣٣٧).

قال الحافظ شمس الدين الذهبي -رحمه الله- معلقًا: «كذا فليكن الردّ بأدب وسكينة»[١].

- ودونكم هذه الصورة العملية والتي تجلي هذه الآداب متمثلة في الرسالة المشهورة - رسالة الإمام الليث بن سعد للإمام مالك بن أنس -رحمهما الله- وفيها قال الليث -رحمه الله-:

«وذاكرتك أنت وعبد العزيز بن عبد الله -ابن الماجشون- بعض ما نعيب على ربيعة من ذلك فكنتما لي موافقين فيما أنكرت، تكرهان منه ما أكره، ومع ذلك -بحمد الله- عند ربيعة خير كثير وعقل أصيل، ولسان بليغ، وفضل مستبين، وطريقة حسنة في الإسلام، ومودة صادقة لإخوانه عامة ولنا خاصة رحمة الله عليه وغفر الله له وجزاه بأحسن من عمله».

وقال أيضًا فيها: «والذي حدثنا به يحيى بن سعيد ولم يكن بدون أفاضل العلماء في زمانه، فرحمه الله وغفر له وجعل الجنة مصيره».

وقال في خاتمتها: «وأنا أحب توفيق الله إياك،وطول بقاءك لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة»[٢].

انظر -يرحمك الله- إلى هذه الرسالة وما اشتملت عليها من فوائد متمثلة في سعة علم هذا الإمام العلم، ولطف عبارته، وإنصافه، وخلقه الدمث، وتأدبه مع أقرانه، وكثرة دعائه لإخوانه العلماء، وإرادة عموم النفع بالمخالف، مع الدعاء له. إنه أنموذج صالح للاقتداء، وموقفٌ يحتاج تدبرًا ونظرًا ثم اتباعًا -رحمهم الله-.

مـا مـات قـوم إذا أبقـوا لنـا أدبًـا وعلـمًا ودينًـا ولا بـانوا ولا ذهبـوا[٣]

- وكان ابن المبارك -رحمه الله- إذا ذكر أخلاق من سلف ينشد:

لا تعرضـــن لـــذكرنا فيـــذكرهم لـيس الـصحيح إذا مـشى كالمقعـد[٤]

---

(١) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١٩/ ٣٣٧).

٢)) انظر (أعلام الموقعين) للعلامة ابن القيم (٣/ ٨٤-٨٨).

(٣) حاشية (الجامع في الحثّ على حفظ العلم) لأبي هلال العسكري - الخطيب البغدادي - ابن عساكر - ابن الجوزي ص (٦٣).

(٤) (بيان فضل علم السلف على علم الخلف) للحافظ ابن رجب/ حققه: محمد بن ناصر العجمي -دار البشائر الإسلامية ص (٨٣).

المبحث الثالث
من صور الأدب مع العلماء
الاستئذان عليهم وعدم الإلحاح، والاختيار الانتظار

قال الله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾(٢).

- **قال الإمام القرطبي** -رحمه الله-: «هذا سؤال الملاطف، والمخاطب المستنزل المبالغ في حسن الأدب، والمعنى: هل يتفق لك ويخف عليك؟ ... وفي الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب»(٣).

- **وقال الإمام الشوكاني** -رحمه الله-: «هذا السؤال ملاطفة، ومبالغة في حسن الأدب»(٤).

- **قال ابن جماعة الكناني** -رحمه الله-: «وأن لا يدخل مع الشيخ في المجلس العام إلا باستئذان، سواء كان الشيخ وحده أو كان معه غيره.. ولا يكرر الاستئذان»(٥).

- **وقال أيضًا** -رحمه الله-: «ولا يقرأ حتى يستأذن الشيخ»(٦).

- **وقال الخطيب البغدادي** -رحمه الله-: «وإذا وجده نائمًا لا يستأذن عليه بل يصبر حتى يستيقظ أو ينصرف، والاختيار الصبر كما كان يفعل ابن عباس -رضي الله عنهما- والسلف يعملون»(٧).

---

(١) سورة «النور» الآية (٢٧).

(٢) سورة «الكهف» الآية (٦٦).

(٣) (الجامع لأحكام القرآن) للإمام القرطبي (١١/ ١٧).

(٤) (فتح القدير) للعلامة الشوكاني (٣/ ٢٩٩).

(٥) (تذكرة السامع والمتكلم) لابن جماعة الكناني ص (١٤٣).

(٦) (تذكرة السامع والمتكلم) لابن جماعة الكناني ص (٢١٩).

(٧) (المجموع شرح المهذب) للإمام النووي (١/ ٣٨).

- **وقال القاسم بن سلام** -رحمه الله-: «ما دققت على محدث بابه قط -وفي رواية- ما أتيت عالمًا قط فاستأذنت عليه، ولكن صبرت حتى يخرج إلي، وتأولت قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾»[1].

- **قال الإمام الزهري** -رحمه الله-: «كنت آتي باب عروة، فأجلس بالباب، ولو شئت أن أدخل لدخلت، ولكن إجلالًا له»[2].

* * *

(١) سورة «الحجرات» الآية (٥).

(٢) «سنن الدارمي» (١/ ١٤٩) في «المقدمة» باب الرحلة في الطلب.

المبحث الرابع
الدخول عليهم في أحسن حال وأبهى حلة
كمظهر من مظاهر الأدب

قال الله تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[١].

وفي حديث جبريل - عليه السلام- المشهور قال عمر -رضي الله عنه-: «بينما نحن جلوس عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ...»[٢] الحديث.

قال الحافظ -رحمه الله-:

وفي رواية أبي فروة: «فإنا لجلوس عنده إذ أقبل رجل، أحسن الناس وجهًا، وأطيب الناس ريحًا، كأن ثيابه لم يمسها دنس»[٣].

وفي «البخاري» عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي - صلى الله عليه وسلم- لقيه في بعض طرق المدينة وهو جنب، فانخنست منه، فذهب فاغتسل ثم جاء، فقال: «له أين كنت يا أبا هريرة«؟ قال: كنت جنبًا فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة»[٤].

قال الحافظ -رحمه الله-: «وفي هذا الحديث استحباب الطهارة عند ملابسة الأمور المعظمة، واستحباب احترام أهل الفضل، وتوقيرهم، ومصاحبتهم على أكمل الهيئات».

- قال ابن جماعة الكناني -رحمه الله-:

«وينبغي أن يدخل على الشيخ كامل الهيئة بتطهر البدن والثياب نظيفهما بعد ما

---

(١) سورة «الأعراف» الآية (٣١).

(٢) رواه «الإمام البخاري» كتاب الإيمان «باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلمعن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة» برقم (٥٠) «الإمام مسلم» في صحيحه كتاب الإيمان«باب الإيمان -القدرية» برقم (٨).

(٣) انظر (فتح الباري) للحافظ ابن حجر (١/ ١١٦).

(٤) (فتح الباري شرح صحيح البخاري) للحافظ ابن حجر (١/ ٣٩١) كتاب الغسل «باب الجنب يخرج ويمشي في السوق وغيره»، بلفظ: «لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا جنب فأخذ بيدي فمشيت معه حتى قعد فانسللت فأتيت الرحل فاغتسلت ثم جئت وهو قاعد فقال: أين كنت يا أبا هر؟ فقلت له. فقال: سبحان الله يا أبا هر إن المؤمن لا ينجس».

يحتاج إليه من أخذ ظفر وشعر وقطع رائحة كريهة لا سيما إن كان يقصد مجلس العلم؛ فإنه مجلس ذكر واجتماع في عبادة»[١].

- **قال الإمام مالك** -رحمه الله-: «قلت لأمي: أذهب فأكتب العلم؟ فقالت: فالبس ثياب العلم، فألبستني ثيابًا مشمرة، ووضعت الطويلة على رأسي، وعممتني فوقها»، ثم قالت: «اذهب فاكتب الآن»[٢].

- **قال قتيبة** -رحمه الله-: «كنا إذا أتينا مالكًا خرج إلينا مزينًا مكحلًا مطيبًا، قد لبس من أحسن ثيابه»[٣].

قال الإمام مالك -رحمه الله-: «ما أدركت فقهاء بلدنا إلا وهم يلبسون الثياب الحسان»[٤].

* * *

(١) (تذكرة السامع والمتكلم) لابن جماعة الكناني ص (١٤٥).
(٢) (ترتيب المدارك) للقاضي عياض (١/ ٥٤).
(٣) (تذكرة الحفاظ) للحافظ شمس الدين الذهبي (١/ ٢١٠).
(٤) (تذكرة الحفاظ) للحافظ شمس الدين الذهبي (١/ ٢١١).

المبحث الخامس
الأدب المحمود الخاص بطلبة العلم

- **قال العلامة ابن القيم** -رحمه الله-[(١)]: «إن كثيرًا من الأخلاق التي لا تحمد في الشخص بل يذم عليها تحمد في طلب العلم كالملق وترك الاستحياء والذلّ والتردد إلى أبواب العلماء ونحوها. قال ابن قتيبة جاء في الحديث: «ليس الملق من أخلاق المؤمنين، إلا في طلب العلم»[(٢)] وهذا أثر عن بعض السلف.

- **وقال ابن عباس** -رضي الله عنهما-: «ذللت طالبًا فعززت مطلوبًا».

- **وقال** -رضي الله عنه-: «وجدت عامّة علم رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذا الحي من الأنصار، إن كنت لأقيل عند باب أحدهم، ولو شئت أذن لي، ولكن ابتغى بذلك طيب نفسه».

- **وقال أبو إسحاق**: «قال علي: كلمات لو رحلتم المطي فيهن لافنيتموهن قبل أن تدركوا مثلهن، لا يرجون عبد إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه، ولا يستحيي من لا يعلم أن يتعلم، ولا يستحيي إذا سئل عمّا لا يعلم أن يقول: لا أعلم ... وإنما حمدت هذه الأخلاق في طلب العلم لأنّها طريق إلى تحصيله فكانت من كمال الرجل ومفضية إلى كماله».

- **ومن كلام الحسن** -رحمه الله-: «من استتر عن طلب العلم بالحياء لبس للجهل سرباله فاقطعوا سرابيل بالحياء فإنه من رؤية وجهه رق علمه».

- **وقال الخليل** -رحمه الله-: «منزلة الجهل بين الحياء والأنفة».

ومن كلام على -رضي الله عنه-: «قرنت الهيبة بالخيبة، والحياء بالحرمان ...وكذلك سؤال الناس هو عيب ونقص في الرجل وذلّة تنافي المروءة إلا في العلم؛ فإنه عين كماله ومروءته وعزّه كما قال بعض أهل العلم: خير خصال الرجل السؤال عن العلم».

وقال رؤية بن العجاج: أتيت النّسابة البكري فقال: من أنت؟ قلت: أنا ابن

---

(١) (مفتاح دار السعادة) للعلامة ابن القيم (١/ ٥٠٩-٥١١).

(٢) انظر (السلسة الضعيفة) (٣٨١-٣٨٢).

العجاج. قال قصرت وعرفت لعلك كقوم إن سكت لم يسألوني، وإن تكلمت لم يعوا عني. قلت: أرجو ألا أكون كذلك، قال: ما أعداء المروءة؟ قلت: تخبرني. قال: بنو عم السوء إن رأوا حسنًا ستروه، وإن رأوا سيئًا أذاعوه، ثم قال إن للعلم آفة ونكدًا وهجنة، فآفته نسيانه، ونكده الكذب فيه، وهجنته نشره عند غير أهله.

وأنشد ابن الأعرابي:

ما أقرب الأشياء حين يسوقها	**قدروا بعدها إذا لم تقدر**
فسل الفقيه تكن فقيها مثله	**من يسع في علم ببذل يمهر**
فتدبر العلم الذي تفتى به	**لا خير في علم بغير تدبر**
ولقد يجد المرء وهو مقصر	**ويخيب جد المرء غير مقصر**
ذهب الرجال المقتدي بفعالهم	**والمنكرون لكل أمر منكر**
وبقيت في خلف يزين بعضهم	**بعضًا ليدفع معور عن معور** [(١)]

- **وقال أمير المؤمنين عمر** - رضي الله عنه -: «من رقّ وجهه، رقّ علمه» ومثله عن الشعبي، والنخعي» [(٢)].

- **قال الإمام الشافعي** - رحمه الله -: «لا يطلب هذا العلم أحد بالتملك، وعزّ النّفس فيفلح، ولكن من طلبه بذلة النفس وضيق العيش وخدمة العلماء والتواضع أفلح» [(٣)].

- **وقال الماوردي** - رحمه الله -: «اعلم أن للمتعلم تملقًا وتذللًا فإن استعملهما غنم، وإن تركهما حرم؛ لأن التملق للعالم يظهر مكنون علمه، والتذلل له سبب لإدامة صبره، وبإظهار مكنونه تكون الفائدة، وباستدامة صبره يكون الإكثار» [(٤)].

- **وعن علي بن حرب** - رحمه الله - **قال**: حدثني أبي قال: كنا في مجلس سفيان بن عيينة،

(١) (مفتاح دار السعادة) للعلامة ابن القيم (١/ ٥٠٩-٥١١).

(٢) (سنن الدارمي) (١/ ١٤٤-١٤٥) في «المقدمة» «باب البلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - وتعليم السنن».

(٣) (فتح المغيث) للسخاوي (٣/ ٢٧٦) وعزاه إلى ابن نعيم في (الحلية) (٩/ ١١٩) والبيهقي في (المدخل) (٣٢٥) وابن عبد البر في (العلم) (١/ ٩٨) والخطيب في (الفقيه والمتفقه) (٢/ ٩٣) و(فتح المغيث) للحافظ العراقي (٣/ ٨٦) و(المحدث الفاصل) (٢٠٢) و(تذكرة السامع والمتعلم) لابن جماعة الكناني ص (١١٦).

(٤) (أدب الدنيا والدين) للماوردي ص (٩٣).

فضجر فقام من مجلسه، فقام إليه رجل من أقصى المجلس، فقال: يا أبا محمد، أنت غاية الناس وطلبتهم، وإن الرجل ليريد الحج، وما ينشط إلا إلى لقائك، فجلس وأنشأ يقول:

خلت الديار فسدت غير مسود ومن الشقاء تفردي بالسؤدد[(١)]

- وعن محمد بن عبد الرحمن الطرائفي - رحمه الله - قال:

«حضرت بدمشق عند ابن جوصا، فجعلت أتملقه. فقلت: أيها الشيخ مثلك مثل ما قال كثير عزة:

وإذا الدرّ زان حسن وجوه كان للدرّ حسن وجهك زينا

وتزيدين أطيب الطيب طيبًا إن لمستيه أين مثلك أينا

فقال: هون عليك، حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول: «لا يغرّ المدح من عرف نفسه»[(٢)].

* * *

(١) (الجامع) للخطيب البغدادي (١/ ٢١٠).
(٢) (الجامع) للخطيب البغدادي (١/ ٢١٠).

الباب الثاني

صور من توقير السلف للعلم وصيانتهم له

ويكون ذلك بالجد في تحصيله والاجتهاد في طلبه وفهمه وحفظه وأخذه على أهله الثقات الأثبات المتفننين فيه -كل بحسبه- وأيضًا التحلي بآدابه والعمل بمقتضاه مع الاحتساب والإخلاص، ثم بذله لأهله الراغبين فيه، المعظمين له. ومن ذلك أيضًا صيانته مما يشينه: من بذله لغير أهله، أو بثه من غير حاجة، أو طلب الدنيا به ...إلخ.

ولقد ضرب سلفنا الصالح في ذلك كله المُثل الرائعة، فكانوا أنموذجًا صالحًا لمن بعدهم، وللمترسم لهديهم، السالك على منوالهم -فرحمهم الله تعالى رحمة واسعة- ومن أمثلة ذلك:

- جاء رجل إلى سعيد بن المسيب -رحمه الله- وهو مريض، فسأله عن حديث وهو مضطجع، فجلس فحدثه، فقال له الرجل: «وددت أنك لم تتعن»، فقال: «إني كرهت أن أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مضطجع»[1].

- **وعن عطاء بن السائب -رحمه الله- قال:** «كان عبد الرحمن بن أبي ليلى يكره أن يسأل وهو يمشي»[2][3].

- **وقيل للإمام مالك -رحمه الله-:** «لِمَ لَمْ تكتب عن عمر بن دينار؟ قال: أتيته والناس يكتبون عنه قيامًا، فأجللت حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن أكتبه وأنا قائم»[4].

(١) (الجامع) للخطيب البغدادي (١/ ٤٠٩).

(٢) (الجامع) للخطيب البغدادي (١/ ٢١٢).

(٣) ويجدر بنا ها هنا الإشارة إلى أنه ثبت كما في (صحيح الإمام البخاري) -رحمه الله- (١٣/ ١١٦فتح) من حديث أنس -رضي الله عنه- أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل وأجاب وهو يمشي، ففي «كتاب الصيام» «باب القضاء والفتيا في الطريق» قال أنس -رضي الله عنه-: «بينما أنا والنبي صلى الله عليه وسلم خارجان من المسجد، فلقينا رجل عند سدة المسجد، فقال يا رسول الله: متى الساعة؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما أعددت لها؟ فكأن الرجل استكان، ثم قال: يا رسول الله ما أعددت لها كبير صيام ولا صلاة وصدقة، ولكن أحب الله ورسوله» فقال صلى الله عليه وسلم: «أنت مع من أحببت» والحديث له عدة طرق انظر (البخاري) كتاب الفضائل، ومسلم برقم (٢٦٣٩) كتاب البر والصلة «باب المرء مع من أحب».

(٤) (الجامع) للخطيب البغدادي (١/ ٤٠٨).

- **وقال خالد بن نزار** -رحمه الله-: «سألت مالكًا عن شيء، وكان متكئًا، فقال: حدثني يحيى بن سعيد بن المسيب، ثم استوى جالسًا، وتجلل بكساه، فقال: استغفر الله. فقلت له في ذلك. فقال: إن العلم أجلّ من ذلك، ما حدثت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا متكئ»[1].

وقال ابن مهدي -رحمه الله-: «مشيت مع مالك يومًا إلى العقيق من المسجد، فسألته عن حديث فانتهرني -وفي رواية- فالتفت إليّ وقال لي: » كنت في عيني أجلّ من هذا، أتسألني عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نمشي! فقلت: إنا لله، ما أراني إلا سقطت من عينه، فلما قعد في مجلسه بعدت عنه، فقال: ادن ها هنا، فدنوت، فقال: قد ظننت أنا أدبناك، تسألني عن حديث رسول الله-صلى الله عليه وسلم- وأنا أمشي؟ سل عما تريد ها هنا.

قال ابن مهدي: وسألوا مالكا بالموسم وهو قائم فلم يحدثهم»[2][3].

- **وقال عبد الله بن المبارك** -رحمه الله-: «وكنت عند مالك وهو يحدثنا -فلدغته عقرب ست عشرة مرة- ومالك يتغير لونه ويصبر، ولا يقطع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغ من المجلس وتفرق الناس، قلت: يا أبا عبد الله لقد رأيت منك اليوم عجبًا، قال: إنما صبرت إجلالًا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم»[4].

- **فعن بشر بن الحارث** -رحمه الله- **قال**: «سأل رجل ابن المبارك -رحمه الله- عن حديث وهو يمشي، فقال: ليس هذا من توقير العلم. قال بشر: فاستحسنته جدًا»[5].

- **وقال قتيبة بن سعيد** -رحمه الله-: «قدمت بغداد وما كانت لي همة إلا أن ألقى

---

(١) (ترتيب المدارك) للقاضي عياض (١/ ٧٨).

(٢) (ترتيب المدارك) للقاضي عياض (١/ ٨١).

(٣) قال ابن أبي أويس الأصبحي - ابن أخت الإمام مالك -: «وكان - أي الإمام مالك - يكره أن يحدث في الطريق أو وهو قائم أو مستعجل، وقال: أحب أن أفهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم» (الشفا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض (٢/ ١٠٠).

(٤) (ترتيب المدارك) للقاضي عياض (١/ ٧٧).

(٥) (الجامع) للخطيب البغدادي (١/ ٢١٢).

أحمد ابن حنبل، فإذا هو جاءني مع يحيى بن معين، فتذاكرنا، فقام أحمد بن حنبل وجلس بين يدي، وقال: أملي علي هذا، ثم تذاكرنا فقام وجلس بين يدي، فقلت: يا أبا عبد الله اجلس مكانك. فقال: لا تشتغل بي إنما أريد أن آخذ العلم على وجهه»[١].

- وكان ربيع القطان -رحمه الله- من الفقهاء المعدودين والعباد المجتهدين وكان أبوه -رحمه الله- من أهل العبادة. قال أخوه أحمد: كنا إذا جلسنا مع والدي، وخطر في باله شيء من العلم، قام من مكانه يبحث بين يدي ربيع ابنه، فيقوم ربيع إليه، ويقول : لم فعلت هذا؟! فيقول: أردت أن أسألك عن شيء من العلم، فيقول: وهلاّ وأنت في مكانك؟ فيقول: أردت أن أعطي للعلم حقه»[٢].

- **وعن إدريس بن عبد الكريم -رحمه الله- قال:** «قال لي سلمة بن عاصم النحوي: أريد أن أسمع كتاب العدد من خلف، فقلت لخلف، فقال: فليجيء، فلما دخل رفعه لأن يجلس في الصدر، فأبى، فقال: لا أجلس إلا بين يديك، وقال: هذا حق التعليم»[٣].

* * *

(١) (مناقب الإمام أحمد) لأبي الفرج ابن الجوزي ص (٥٦).

(٢) (ترتيب المدارك) للقاضي عياض (٢/ ٣٣٢).

(٣) (تاريخ بغداد) (٩/ ١٣٤) والنقل عن (الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام) ص (٢٠٩).

الباب الثالث

توقير العلماء

المبحث الأول
صور من توقير سلفنا الصالح للعلماء وحفظ رتبتهم ورعاية حرمتهم

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾[2] قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾[3]، قال المبرد: «تعزروه» أي: تبالغوا في تعظيمه»[4].

- **وفي «صحيح البخاري» أن عروة بن مسعود الثقفي - رضي الله عنه - قال:** «...أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، وفدت على قيصر وكسرى والنجاشي[5] والله إن رأيت مليكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم محمدًا، والله ما تنخم نخامة إلا وقعت في كفّ رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له ...»[6].

قال الحافظ - رحمه الله -: «وفي قصة عروة بن مسعود من الفوائد ما يدلّ على جودة عقله ويقظته، وما كان عليه الصحابة من المبالغة في تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم وتوقيره ومراعاة أموره، وردع من جفا عليه بقول أو فعل، والتبرك بآثاره»[7].

---

(١) سورة «البقرة» الآية (٢٣٧).
(٢) سورة «الأعراف» الآية (٨٥).
(٣) سورة «الفتح» الآيتان (٨-٩).
(٤) (الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام) للشيخ محمد بن إسماعيل ص (١٦٠).
(٥) قال الحافظ - رحمه الله -: «وذكر الثلاثة لكونهم أعظم ملوك ذلك الزمان» انظر (الفتح) (٥/ ٣٤١).
(٦) كتاب الشروط «باب الشروط في الجهاد، والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط» برقم (٢٧٣٠).
(٧) انظر (فتح الباري شرح صحيح البخاري) للحافظ ابن حجر (٥/ ٣٤٢).

– في «البخاري» من حديث علي بن أبي طالب قال: «كنت رجلًا مذاءً فأمرت رجلًا أن يسأل النبي –صلى الله عليه وسلم– لمكان ابنته»[(١)].

– قال الحافظ –رحمه الله–: «وفيه ما كان الصحابة عليه من حرمة النبي صلى الله عليه وسلم– وتوقيره»[(٢)].

– بل لقوله –صلى الله عليه وسلم–: «ليس منّا من لم يجلّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه»[(٣)]، ولا شك أنه بمنزلة الوالد وأعظم، وإجلاله من إجلال العلم، وإنما الناس بشيوخهم فإذا ذهب الشيوخ فمع من العيش؟!!

– وعن عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– قال: كان رسول الله–صلى الله عليه وسلم– يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: «استووا، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم، ليليني منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[(٤)].

وقد ترجم الإمام النووي –رحمه الله– لهذا الحديث باب: «توقير العلماء والكبار وأهل الفضل وتقديمهم على غيرهم ورفع مجالسهم وإظهار مرتبتهم»[(٥)].

– وفي «صحيح مسلم» عن ابن شماسة المهدي قال: «حضرنا عمرو بن العاص –رضي الله عنه– وهو في سياقة الموت فبكى طويلًا، وقال: «... وما كان أحد أحبّ إلي من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ولا أجلّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالًا له، ولو سئلت أن أصفه، ما أطقت؛ لأني لم أكن أملأ عيني منه»[(٦)].

– وعن يحيى بن سعيد –رحمه الله– قال: «ذكر عمر فضل أبي بكر، فجعل يصف مناقبه، ثم قال: هذا سيدنا بلال، حسنه من حسناته»[(٧)].

(١) رواه (البخاري) (١/ ٣٧٩) كتاب الغسل «باب غسل المذي والوضوء منه» حديث رقم (٢٦٩).

(٢) (فتح الباري) للحافظ ابن حجر العسقلاني (١/ ٣٨١).

(٣) رواه الإمام أحمد، والحاكم، من حديث عبادة بن الصامت –رضي الله عنه–، وحسنه الشيخ الألباني كما في (صحيح الجامع) برقم (٥٤٤٣) وانظره أيضًا في(صحيح الترغيب والترهيب) برقم (٩٦).

(٤) (صحيح مسلم) كتاب الصلاة «باب تسوية الصفوف وإقامتها، وفضل الأول فالأول، والازدحام على الصف الأول، والمسابقة إليها، وتقديم أولي الفضل وتقريبهم من الإمام» برقم (٤٣٢).

(٥) (رياض الصالحين) للإمام النووي ص (١٨٢) تحقيق الشيخ الألباني.

(٦) (صحيح الإمام مسلم) «كتاب الإيمان» «باب الإسلام يهدم ما قبله وكذا الحج والهجرة»، برقم (١٦١).

(٧) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١/ ٣٥٨-٣٥٩).

- **قال يزيد بن الأصم** -رحمه الله-:

«خرج معاوية -رضي الله عنه- حاجًا معه ابن عباس -رضي الله عنهما- فكان لمعاوية -رضي الله عنه- موكب، ولابن عباس -رضي الله عنهما- موكب ممن يطلب العلم»[(١)].

- **وقال ابن سيرين** -رحمه الله-: «رأيت أبن أبي ليلى، وأصحابه يعظّمونه، ويسوّدونه، ويشرّفونه، مثل الأمير»[(٢)].

- **وقال الإمام أبو حنيفة** -رحمه الله-: «ما مددت رجلي نحو دار أستاذي حماد إجلالًا له، وكان بين داري وداره سبع سكك»[(٣)].

- **قال حماد بن زيد** -رحمه الله-: «قدم علينا حجاج بن أرطأة وله إحدى وثلاثون سنة، فرأيت عليه الزحام ما لم أر على حماد بن أبي سليمان، قال حماد: فرأيت عنده يونس بن عبيد، ومطر الوراق وداود بن هند جثاة يقولون: يا أبا أرطأة ما تقول في كذا، ما تقول في كذا»[(٤)].

- **وروى سعيد بن أبي مريم عن خاله -رحمهما الله- قال:** «كان عمرو بن الحارث يخرج من منزله فيجد الناس صفوفًا يسألونه عن القرآن والحديث والفقه والشعر والعربية والحساب»[(٥)].

- وبعد دونك أيها النجيب هذا الموقف العجيب الذي سطره لنا التأريخ ينبئك عن عظمة هاتيك النفوس، ونقاء تلكم القلوب، ويوقفك على عظيم عرش سلطان العلم، وسمو رتبة أهله، وهو بين ثلاث أئمة من الأئمة الأربعة في عصر تابعي التابعين[(٦)] ذكره الحافظ شمس الدين الذهبي -رحمه الله- في ترجمة الإمام الأوزاعي -رحمه الله-:

---

(١) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٣/ ٣٥١).

(٢) (فتح المغيث) للسخاوي (٣/ ٢٨٨) و(الجامع) للخطيب (١/ ١٨٢).

(٣) انظر (مناقب الإمام أبي حنيفة) للخوارزمي (٢/ ٧) والنقل عن(الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام) ص (١٩٥).

(٤) (تذكرة الحفاظ) للحافظ شمس الدين الذهبي (١/ ١٨٧).

(٥) (تاريخ الإسلام) للحافظ الذهبي -وفيات ١٦١هـ-١٨٠هـ ص (٢٣٥).

(٦) ذكر شيخ الإسلام -رحمه الله- في (الفتوى الحموية الكبرى) ص (٣٠٠-٣٠٢) «... الأئمة الأربعة في عصر تابعي التابعين الذين هم: مالك إمام أهل الحجاز، والأوزاعي إمام أهل الشام، والليث إمام أهل مصر، والثوري إمام أهل العراق».

«بلغ الثوري وهو بمكة مقدم الأوزاعي، فخرج حتى لقيه بذي طوى[١] فلمّا لقيه حلّ رسن[٢] البعير من القطار، فوضعه على رقبته، فجعل يتخلل به، فإذا مرّ بجماعة قال: «الطريق للشيخ»[٣].

هذا وقد ذكره أيضًا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في «البداية والنهاية» حيث قال: «قال سفيان بن عيينة وغيره: وكان الأوزاعي إمام أهل زمانه، وقد حجّ مرّة فدخل مكة وسفيان الثوري آخذ بزمام جمله، ومالك بن أنس يسوق به، والثوري يقول: افسحوا للشيخ، حتى أجلسه عند الكعبة، وجلسا بين يديه يأخذان عنه» رحمة الله على هؤلاء السادة، هذا الموقف نهديه لإخواننا طلبة العلم على مراتبهم، فليُتَأَمّل.

قال الحافظ شمس الدين الذهبي -رحمه الله-:

«روي عن الأوزاعي أنه إذا ذكر مالكًا يقول: عالم العلماء، ومفتي الحرمين»[٤].

- **قال السخاوي -رحمه الله-:** «ومما قيل في مالك -رحمه الله-:

يدع الجواب فلا يراجع هيبة ... والسائلون نواكس الأذقان

نور الوقار وعز سلطان التقي ... فهو المهيب وليس ذا سلطان[٥]

- **وفي «سير أعلام النبلاء» في ترجمة وكيع بن الجراح -رحمه الله- قال الحافظ الذهبي -رحمه الله-:** «وكان أحمد - هو الإمام- يعظّم وكيعًا ويفخمه»[٦].

- **قال المروذي-رحمه الله-:** «دخلت على ذي النون السجن ونحن بالعسكر، فقال: أي شيء حال سيدنا -يعني أحمد بن حنبل-»[٧].

---

(١) قال الجوهري: وذو طوى موضع عند مكة) انظر (معجم البلدان) لياقوت الحموي (٤/ ٤٥).

(٢) الرسن: «الحبل، وما كان من الآزمة على الأنف. والجمع: أرسان وأرسن» انظر (لسان العرب» لابن منظور (١٣/ ١٨٠).

(٣) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٦/ ١١٢).

(٤) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٨/ ٩٤).

(٥) (فتح المغيث) للسخاوي (٣/ ٢٨٨) و(الجامع) الخطيب (١/ ١٨٥) و(الحلية) لأبي نعيم (٦/ ٣١٨) و(المدخل) للبيهقي (٣٨٨) و(المحدث الفاصل) (٢٤٧) و(جامع بيان العلم) (١/ ١٨٢) و(الحيوان) للجاحظ (٣/ ٤٩٠) و(عيون الأخبار) (١/ ٢٩٤) و(العقد الفريد) (٢/ ٧٢).

(٦) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٩/ ١٤٤).

(٧) (نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء) (٢/ ٨١٣).

- **قال العباس بن عبد العظيم العنبري** -رحمه الله-: «كنت عند أحمد بن حنبل وجاءه علي بن المديني راكب على دابته. قال: فتناظرا في الشهادة وارتفعت أصواتهما، حتى خفت أن يقع بينهما جفاء وكان أحمد يرى الشهادة[١] وعلي يأبى ويدفع، فلمّا أراد علي الانصراف، قام أحمد فأخذ بركابه»[٢].

- **وقال ابن المديني** -رحمه الله-:

«أمرني سيدي أحمد بن حنبل ألا أحدث إلا من كتاب»[٣].

- **قال أبو جعفر** -رحمه الله-: «وكان -يعني الإمام أحمد- يتواضع للشيوخ شديدًا، وكانوا يعظّمونه، وكان يفعل بيحيى بن معين ما لم أره يعمل بغيره، من التواضع والتكريم والتبجيل، كان يحيى أكبر منه بسبع سنين»[٤].

- **وقال البخاري** -رحمه الله-: «ما رأيت أحدًا أوقر للمحدثين من ابن معين»[٥].

- **وقال الإمام أبو زرعة** -رحمه الله-: «كنت عند أحمد بن حنبل فذكر إبراهيم بن طهمان، وكان متكئًا من علة فجلس، وقال: » لا ينبغي أن يذكر الصالحون فيتكأ»[٦].

- **قال الإمام أحمد – رحمه الله تعالى- لخلف الأحمر**: «لا أقعد إلا بين يديك، أمرنا أن نتواضع لمن نتعلم منه»[٧].

-**وقال إبراهيم الخواص** -رحمه الله-: «رأيت أبا زرعة كالصبي جالسًا بين يدي محمد بن إسماعيل يسأله عن علل الحديث»[٨].

---

(١) قال الإمام ابن عبد البر -رحمه الله- بعد نقل هذا الخبر: «كان أحمد بن حنبل-رحمه الله- يرى الشهادة بالجنة لمن شهد بدرًا والحديبية، أو لمن جاء فيه أثر مرفوع، على ما كان منهم من سفك دماء بعضهم بعضًا، وكان علي بن المديني يأبى ذلك، ولا يصحح في ذلك أثرًا».

(٢) (جامع بيان فضل العلم وأهله) للحافظ أبي عمر ابن عبد البر (٢/ ٩٦٨) محققة.

(٣) (نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء) (٢/ ٨١٣).

(٤) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١١/ ٣١٨).

(٥) (فتح المغيث) (٣/ ٢٨٨) و(الجامع) للخطيب (١/ ١٨٣).

(٦) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٧/ ٣٨١).

(٧) (تذكرة السامع والمتكلم) لابن جماعة الكناني ص (٨٨).

(٨) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١٢/ ٤٠٧).

- **وقال الحافظ ابن رجب في شيخه ابن القيم -رحمهما الله-:**

«وأخذ عنه العلم خلق كثير من حياة شيخه وإلى أن مات، وانتفعوا به، وكان الفضلاء يعظمونه ويتتلمذون عليه كابن عبد الهادي وغيره»[(١)].

قلت: ومن صور التعظيم والتبجيل سؤال من كان سببًا في تصنيف العلامة ابن القيم -رحمه الله- لكتابه القيم «الجواب الكافي» حيث كانت صيغته: «ما تقول السادة - أئمة الدين- رضي الله عنهم أجمعين في ... أفتونا مأجورين رحمكم الله تعالى»[(٢)].

ومن أمثلة توقير أسلافنا للعلماء أيضًا ما سطروه لنا في كتب التراجم من جميل الثناء عليهم، بأرقّ العبارات، وأدلّ الكلمات، وأحسن الأوصاف، وأبلغ التعريفات، لا سيما صنيع الحافظ مؤرخ الإسلام شمس الدين الذهبي - رحمه الله - ولكل إنسان نصيب من اسمه- في كتابه الماتع (سير أعلام النبلاء).

وفي (فتح المغيث) للسخاوي -رحمه الله-: «والشيخ عظّمه واحترمه ووقّره، لقول طاووس: «من السّنة أن يوقر العالم»[(٣)].

* * *

(١) (كتاب الذيل) للحافظ ابن رجب (٢/ ٤٤٩).

(٢) (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) للعلامة ابن القيم ص (٩).

(٣) أخرجه عبد الرازق في (مصنفه) (٣٣/ ٢٠)، والبيهقي في (المدخل) (٦٦٤)، والخطيب في (الفقيه والمتفقه) (٢/ ١٧٩)، وابن عبد البر في (جامعة) (١/ ٩)، وانظر (فتح المغيث) للسخاوي (٣/ ٢٨٧).

المبحث الثاني
توقير العلماء لأقرانهم كنموذج صالح للاتباع

وها هي سير سلفنا الصالح شاهدة على اعتراف بعضهم لبعض بالفضل ورعاية حقّه، وصيانة عرضه، وحفظ مرتبته، ناطقة بجلال العلم، شاهدة بسلطانه عصرًا بعد عصر، ومن أمثلة ذلك.

- **قال أبو عمرو الشيباني - رحمه الله -:**

«أن أبا موسى استفتي في شيء من الفرائض فغلط، وخالفه ابن مسعود، فقال أبو موسى: «لا تسألوني عن شيء ما دام هذا الحبر بين أظهركم»[(١)].

- **عن همام عن ثابت البناني - رحمه الله - قال:**

«أن أبا برزة كان يلبس الصوف، فقيل له: إن أخاك عائذ بن عمرو يلبس الخز. قال: ويحك! ومن مثل عائذ. فانصرف الرجل فأخبر عائذًا فقال: «ومن مثل أبي برزة» قلت - الحافظ الذهبي -: هكذا كان العلماء يوقرون أقرانهم»[(٢)].

- قال أبو المنهال - رحمه الله - سألت البراء - رضي الله عنه - عن الصرف، فقال: «سل زيد ابن أرقم - رضي الله عنه -؛ فإنه خير مني، وأعلم»[(٣)].

- **قال ابن عون - رحمه الله -:**

«لما وقعت الفتنة زمن ابن الأشعث، خفّ مسلم فيها، وأبطأ الحسن فارتفع الحسن، واتضع مسلم».

قلت -الحافظ الذهبي-: «إنما يعتبر ذلك في الآخرة، فقد يرتفعان معًا».

قال سفيان بن عيينة - رحمه الله -: إن الحسن البصري لما مات مسلم بن يسار قال: «وامعلماه»[(٤)].

---

(١) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١/ ٤٩٢-٤٩٣).
(٢) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٣/ ٤٢).
(٣) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٣/ ١٦٧).
(٤) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٤/ ٥١٣).

– **ما قاله قتيبة قيل لسفيان بن عيينة** –رحمه الله–: «قدم حسين الجعفي فوثب قائمًا، وقال: «قدم أفضل رجل يكون قط»[(١)].

– و «كان يحيى بن سعيد –رحمه الله– يجالس ربيعة –رحمه الله– فإذا غاب ربيعة، حدثهم يحيى أحسن الحديث، وكان كثير الحديث، فإذا حضر ربيعة كفّ يحيى، إجلالًا لربيعة، وليس ربيعة أسنّ منه، وهو فيما هو فيه، وكان كل واحد منهما مبجلًا لصاحبه»[(٢)].

– **قال دعلج بن أحمد** –رحمه الله–: «حدثني بعض الفقهاء من أصحاب داود أنهم حضروا مجلس داود بن علي يومًا ببغداد، فدخل عليه المجلس رجل جلس آخر الناس، ثم أنه كلّم داود بن علي فتعجب من حسن كلامه، فقال لعلك أبو عبد الله البوشنجي؟ قال: نعم. فقام داود بنفسه إليه، وأخذه بيده حتى أجلسه إلى جنبه، وقال لأصحابه: قد حضركم من يفيد ولا يستفيد»[(٣)].

– **قال أبو قتيبة** –رحمه الله–: «قدمت الكوفة فأتيت سفيان الثوري، فقال: من أين أنت؟ قلت: من أهل البصرة. قال: ما فعل أستاذنا شعبة»[(٤)].

– **قيل لسفيان** –رحمه الله–: «إن مالكًا –رحمه الله– يخالف في هذا الحديث –والرجلان إمامان– فقال سفيان –رحمه الله– ما أنا ومالك إلا كما قال جرير:

وابن اللبون إذا ما لزّ في قرن ... لم يستطع صولة البزل القناعس[(٥)]

كأنه يقول: من أنا حتى تقيسني بمالك؟! مالك إمام عظيم الشأن، وأنا بالنسبة إليه صغير، وهذا من تواضعه –رحمه الله– وإلا فسفيان له قدره ومنزلته العظيمة»[(٦)].

– **وقال الإمام أبو زكريا يحيى بن معين** –رحمه الله–: «الذي يحدث ببلد به من هو أولى

---

(١) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٩/ ٣٩٩).
(٢) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٦/ ٩٢).
(٣) (تهذيب التهذيب) للحافظ ابن حجر (٩/ ٨).
(٤) (الكامل في ضعفاء الرجال) لابن عدي (١/ ١٥٥) في المقدمة.
(٥) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٨/ ٧٣-٧٤).
(٦) (معالم في طريق طلب العلم) للشيخ عبد العزيز السدحان ص (١١٠-١١١).

بالتحديث منه أحمق، وإذا رأيتني أحدث ببلد فيها مثل أبي مسهر[١] فينبغي للحيتي أن تحلق»[٢][٣].

– قال محمد بن رافع –رحمه الله–: «كنت مع أحمد بن حنبل وإسحاق عند عبد الرزاق فجاءنا يوم الفطر فخرجنا مع عبد الرزاق إلى المصلى، ومعنا ناس كثير، فلمّا رجعنا من المصلى، دعانا عبد الرزاق إلى الغداء فجعلنا نتغدى معه، فقال لأحمد وإسحاق: «رأيت اليوم منكما شيئًا عجبًا لم تكبرا! قالا: يا أبا بكر نحن ننظر إليك، هل تكبّر فنكبّر، فلما رأيناك لم تكبر أمسكنا. قال: وأنا كنت أنظر إليكما هل تكبران، فأكبر»[٤].

– قال أبو حاتم الرازي –رحمه الله–: «كان ابن المديني علمًا في الناس في معرفة الحديث والعلل، وكان أحمد بن حنبل لا يسميه، إنما يكنيه تبجيلًا له، ما سمعت أحمد سماه قط»[٥].

– قال محمد بن الحسين الأنماطي –رحمه الله–: «كنا في مجلس فيه يحيى بن معين وأبو خيثمة فجعلوا يثنون على أحمد بن حنبل. فقال رجل: فبعض هذا! فقال يحيى: وكثرة الثناء على أحمد تستنكر!! لو جلسنا مجالسنا بالثناء عليه ما ذكرنا فضائله بكمالها»[٦].

– وقال ابن معين –رحمه الله–:

«ما رأيت مثل أحمد أرادوا أن أكون مثل أحمد، والله لا أكون مثله أبدًا»[٧].

---

(١) هو عبد الأعلى بن مسهر، الإمام، شيخ الشام، أبو مسهر بن أبي ذرامة الغساني الدمشقي الفقيه، مولده سنة أربعين ومائة، روى عنه يحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، والذهلي، والبخاري، والدارمي، وأبو حاتم الرازي، وغيرهم.
قال أبو داود: سمعت أحمد بن حنبل يقول: «رحم الله أبا مسهر، ما كان أثبته، وجعل يطريه» انظر (سير أعلام النبلاء) للحافظ الذهبي (١٠/ ٢٢٨).

(٢) إلا أن العلماء قالوا: «لا يجوز التعزير بحلق اللحية؛ لكونه أمرًا محرمًا في ذاته عند الجمهور»، انظر (الموسوعة الفقهية) نقلًا عن (حاشية القليوبي) (٤/ ٢٠٥)، وأيضًا في (١٢/ ٢٥٧) من (الموسوعة) حيث قال: «منع جمهور الفقهاء في التعزير الصفع وحلق اللحية وتسويد الوجه»، وقال البهوتي: «يحرم التعزير بحلق لحية لما فيه من المثلة».

(٣) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١٠/ ٢٣٠-٢٣١).

(٤) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١٢/ ٢١٦).

(٥) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١١/ ٤٣).

(٦) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١١/ ١٩٦).

(٧) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١١/ ١٩٧).

المبحث الثالث

من مظاهر القدوة

العلماء والعدل في الرضا والغضب

وهذا المبحث متممًا لما قبله، مجلّيًا لما كان عليه القوم من العدل والإنصاف، وهضم حظ النفس، وقول الحق في الرضا والغضب، مبرزًا صورة من صور العظمة عند سلفنا الصالح -رحمهم الله-.

- **فقد ذكر الحافظ شمس الدين الذهبي** -رحمه الله-: «أن أبا نعيم الحافظ -رحمه الله- ذكر له ابن مندة -رحمه الله- فقال: كان جبلًا من الجبال».

قال الحافظ الذهبي -رحمه الله- **معلقًا:**

«فهذا يقوله أبو نعيم مع الوحشة [1] الشديدة التي بينه وبينه» [2].

- **وقال الإمام أحمد بن حنبل** -رحمه الله-:

«لم يعبر الجسر إلى خراسان مثل إسحاق -رحمه الله- وإن كان يخالفنا في أشياء، فإن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضًا» [3].

- **وقال عبد الله بن محمد الوراق** -رحمه الله-:

«كنت في مجلس أحمد بن حنبل فقال من أين أقبلتم؟ قلنا: من مجلس أبي كريب. فقال اكتبوا عنه فإنه شيخ صالح. فقلنا: إنه يطعن عليك، فقال: فأي شيء حيلتي، شيخ صالح قد بلي بي» [4].

* * *

---

(١) وهذه الوحشة كانت بسبب الخلاف المتأجج بين العلماء وقتئذ حول قضية اللفظ في القرآن، انظر في ذلك (حاشية منهاج السنة النبوية) لشيخ الإسلام (١/ ١٦٠).

(٢) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١٧/ ٣٢).

(٣) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١١/ ٣٧١).

(٤) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١١/ ٣١٧).

المبحث الرابع
توقير ولاة الأمر للعلماء

لقد فهم الولاة الصالحون في صدر هذه الأمة ما للعلماء من عميم نفع وعظيم حق، وأدركوا جزيل الحاجة إليهم، فغشوا مجالسهم والتمسوا قربهم، واحتاجوا إلى علمهم ومشوراتهم، وصاحب ذلك كله تقدير لهم وتوقير وتبجيل، فاستقامت بهذا الوفاق والوئام البلاد، وحسن به حال العباد، والأمثلة في ذلك كثيرة مشهورة، فمنها على سبيل المثال لا الحصر والاستقصاء:

- **قال الأصمعي** -رحمه الله-: «دخل عطاء بن أبي رباح -رحمه الله- على عبد الملك وهو جالس على السرير، وحوله الأشراف وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته، فلما بصر به عبد الملك، قام إليه، فسلّم عليه وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه، وقال: يا أبا محمد حاجتك؟

قال: يا أمير المؤمنين اتق الله في حرم الله وحرم رسوله فتعاهده بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسؤول عنهم، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق دونهم بابك. فقال له: أفعل. ثم نهض وقام، فقبض عليه عبد الملك وقال: يا أبا محمد إنما سألتنا حوائج غيرك، وقد قضيناها، فما حاجتك؟ قال: ما لي إلى مخلوق حاجة، ثم خرج. فقال عبد الملك: «هذا وأبيك[1] الشرف ..هذا وأبيك السؤدد»[2].

- **قال الإمام مالك** -رحمه الله-:

«كان عمر بن عبد العزيز لا يقضي بقضية -يعني وهو أمير المدينة- حتى يسأل سعيد بن المسيب، فأرسل إليه إنسانًا يسأله، فدعاه، فجاء. فقال عمر له: أخطأ الرسول، إنما أرسلناه يسألك في مجلسك»[3].

(١) هي كلمة جارية على اللسان لا يقصد بها الحلف. انظر (فتح الباري) للحافظ ابن حجر (١/ ١٠٧).
(٢) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٥/ ٨٤-٨٥).
(٣) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٤/ ٢٢٤-٢٢٥).

- **ويروى:** «أن أبا إسحاق الحربي لما دخل على إسماعيل القاضي بادر أبو عمر محمد ابن يوسف القاضي إلى نعله، فأخذها فمسحها من الغبار»[(١)].

- **قال الرعيني** - رحمه الله -:

«قدم المهدي المدينة فبعث إلى مالك، فأتاه. فقال: لهارون وموسى اسمعا منه، فبعث إليه فلم يجبهما، فأعلما المهدي، فكلمة فقال: يا أمير المؤمنين العلم يؤتى أهله. فقال صدق مالك: صيرا إليه»[(٢)].

- **قال هشام بن عيسى** - رحمه الله -: «لما قدم هارون المدينة دعا مالكًا، فقال الإمام مالك: منكم خرج هذا العلم، وأنتم أولى الناس بإعظامه، ومن إعظامكم له ألا تدعوا حملته إلى أبوابكم، قال -أي: الخليفة هارون-: قد فعلت يا أبا عبد الله»[(٣)].

- **وكان أشهب بن عبد العزيز** - رحمه الله - **يقول:** «كان الليث له كل يوم أربعة مجالس يجلس فيها: أما أولها فيجلس لنائبة السلطان في نوائبه وحوائجه -وكان الليث يغشاه السلطان- فإذا أنكر من القاضي أمرًا، أو من السلطان، كتب إلى أمير المؤمنين فيأتيه العزل»[(٤)].

«كان الليث - رحمه الله - فقيه مصر ومحدثها ومحتشمها ورئيسها ومن يفتخر بوجوده الإقليم، بحيث أن متولي مصر وقاضيها وناظرها من تحت أوامره، ويرجعون إلى رأيه ومشورته»[(٥)].

- **وذكر الحافظ الذهبي** - رحمه الله - **في ترجمة يحيى بن زياد الفراء** - رحمه الله -:

«وكان المأمون قد وكّل بالفراء[(٦)] ولديه يلقنهما النحو، فأراد القيام، فابتدرا إلى نعله فقدم كل واحد فردة، فبلغ ذلك المأمون فقال: لن يكبر الرجل عن تواضعه لسلطانه، وأبيه، ومعلمه»[(٧)].

---

(١) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١٣/ ٣٥٧).

(٢) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٨/ ٦٣).

(٣) (ترتيب المدارك) للقاضي عياض (١/ ٧٩).

(٤) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٨/ ١٥٠).

(٥) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٨/ ١٤٣).

(٦) انظر ترجمته في (سير أعلام النبلاء) (١٠/ ١١٨).

(٧) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١٠/ ١١٩).

- **وعن أبي معاوية الضرير** - رحمه الله - **قال:**

«صبّ على يدي بعد الأكل شخص لا أعرفه، فقال الرشيد: تدري من يصبّ عليك؟ قلت: لا. قال: أنا إجلالًا للعلم»[١].

- **قال الحافظ ابن حجر** - رحمه الله -:

«وكان أمير بغداد وخليفة الوقت إذ ذاك في غاية المحبة له - أي: الإمام أحمد- والتعظيم»[٢].

- **ما قاله الوزير أبو الفضل محمد بن عبيد الله البلعمي سمعت الأمير إسماعيل بن أحمد** - رحمه الله - **يقول:** كنت بسمرقند فجلست يومًا للمظالم وجلس أخي إسحاق إلى جنبي، إذ دخل أبو عبد الله محمد بن نصر، فقمت له إجلالًا للعلم»[٣].

- وفي ترجمة المستنصر بالله الملقب بأمير المؤمنين أبي العاص الحكم بن الناصر لدين الله عبد الرحمن الأموي المرواني صاحب الأندلس وابن ملوكها.

- **قال الحافظ شمس الدين الذهبي** - رحمه الله - «وكان يتأدب مع العلماء»[٤].

- وفي ترجمة «قاضي القضاة» بمصر بكار بن قتيبة بن أسد بن عبيد الله بن بشير بن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكرة نفيع بن الحارث، القاضي الكبير، العلامة، المحدث قال الحافظ الذهبي - رحمه الله -: «كان عظيم الحرمة، وافر الجلالة، من العلماء العاملين،كان السلطان ينزل إليه ويحضر مجلسه»[٥].

- **وقال ابن الفرضي** - رحمه الله -:

«كان أبو إبراهيم - التجيبي[٦] شيخ المالكية بقرطبة- حافظًا للفقه صدرًا في الفتيا، وقورًا، مهيبًا، لم يكن له بالحديث كبير علم، وله كتاب «معالم الطهارة» وكان الحكم

---

(١) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٩/ ٢٨٨).
(٢) (الرد الوافر) لابن ناصر الدين الدمشقي ص (٢٤٦).
(٣) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١٤/ ٣٩).
(٤) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١٦/ ٢٣١).
(٥) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١٢/ ٦٠٠).
(٦) انظر ترجمته في (سير أعلام النبلاء) (١٦/ ٧٩).

أمير المؤمنين معظمًا له» وقيل: «مرّ السلطان بباب مسجده فنزل مراعاة له، وسلم عليه، ومناقبه جمة»[١].

– **وفي ترجمة الأشرف صاحب دمشق السلطان الملك مظفر الدين أبو الفتح موسى شاه أرمن:** قال الحافظ الذهبي –رحمه الله–: «كان يبالغ في تعظيم الشيخ الفقيه[٢] توضأ الفقيه يومًا فوثب الأشرف وحلّ من تخفيفته ورماها على يدي الشيخ لينشف بها، رأى ذلك شيخنا أبو الحسين وحكاه لي»[٣].

– **قال أبو عمرو الخفاف –رحمه الله–:**

«كان عمرو بن الليث الصفار – يعني: السلطان – يقول لي: «يا عم متى ما علمت شيئًا لا يوافقك، فاضرب رقبتي إلى أن أرجع إلى هواك»، قلت – أي الحافظ الذهبي– كذا فليكن السلطان مع الشيخ»[٤].

–**وفي ترجمة السلفي:** الإمام العلامة المحدث الحافظ المفتي شيخ الإسلام شرف المعمرين أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الأصبهاني قال الحافظ شمس الدين الذهبي –رحمه الله–:

«ارتحل إليه خلق كثير جدًا، ولا سيما لمّا زالت دولة الرفض[٥] عن إقليم مصر، وتملكها عسكر الشام، فارتحل إليه السلطان صلاح الدين وإخوته وأمراؤه فسمعوا منه»[٦].

– **قال عبد القادر الحافظ –رحمه الله–:**

«وكان أبو طاهر لا تبدو منه جفوة لأحد، ويجلس للحديث فلا يشرب ماء، ولا يبزق، ولا يتورك، ولا تبدو له قدم، وقد جاز المئة، بلغني أن سلطان مصر حضر عنده

---

(١) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١٦/ ٨٠).

(٢) يعني اليونيني: «الزاهد العابد أسد الشام الشيخ عبد الله بن عثمان بن جعفر، وكان شيخًا طويلًا مهيبًا شجاعًا»، انظر ترجمته في (سير أعلام النبلاء) (٢٢/ ١٠١).

(٣) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٢٢/ ١٢٦-١٢٧).

(٤) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١٣/ ٥٦٢).

(٥) يعني دولة بني عبيد المعروفة خطأ بالدولة الفاطمية. انظر حاشية (سير أعلام النبلاء) (٢١/ ١٧).

(٦) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٢١/ ١٧).

للسماع، فجعل يتحدث مع أخيه، فزبرهما وقال: أيش هذا، نحن نقرأ الحديث، وأنتما تتحدثان»[(١)].

- وفي ترجمة الإمام العالم القدوة الحافظ أبو محمد أحمد بن عبد الله بن بشر بن مغفل ابن حسان ابن صاحب رسول الله- صلى الله عليه وسلم- عبد الله بن مغفل المزني قال الحاكم -رحمه الله-:

«كان إمام أهل خراسان بلا مدافعة، وقد حجّ بالناس وخطب بمكة، وقدم إليه المقام وهو قاعد في جوف الكعبة، ولقد سمعتهم بمكة يذكرون أن هذه الولاية لم تكن قط لغيره، ومن عظمته أن كان فوق الوزراء، وأنهم كانوا يصدرون عن رأيه»[(٢)].

- قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-:

«لمّا توفى ابن دقيق العيد أرسل إلى ابن جماعة كتاب من السلطان إليه فيه -أي الكتاب- تعظيم له واحترام وإكرام يستدعيه إلى قربه ليباشر وظيفة القضاء بمصر على عادته، فتهيأ لذلك ولمّا خرج، خرج معه نائب السلطنة (الأفرم) وأهل الحل والعقد وأعيان الناس ليودعوه، ولمّا وصل ابن جماعة إلى مصر أكرمه السلطان إكرامًا زائدًا»[(٣)].

قال الماوردي -رحمه الله-:

«قال بعض السلف: إذا أراد الله بالناس خيرًا جعل العلم في ملوكهم، والملك في علمائهم».

وقال بعض البلغاء: «العلم عصمة الملوك؛ لأنه يمنعهم من الظلم ويردهم إلى العلم ويصدهم عن الأذية، ويعطفهم على الرعية، فمن حقهم أن يعرفوا حقه، ويستبطنوا أهله»[(٤)].

- قال أشعث بن شعبة المصيصي -رحمه الله-:

«لما قدم الرشيد الرقة، فانجفل الناس خلف ابن المبارك، وتقطعت النعال،

---

(١) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٢١/ ٢٤).
(٢) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١٦/ ١٨٢).
٣)) (البداية والنهاية) للحافظ ابن كثير (١٤/ ٢٣).
(٤) (أدب الدنيا والدين) للماوردي ص (٥٧).

وارتفعت الغبرة، فأشرفت أم ولد لأمير المؤمنين من برج من قصر الخشب، فقالت: ما هذا؟ قالوا: عالم من أهل خراسان قدم. قالت: هذا والله الملك، لا ملك هارون الذي يجمع الناس بشرط وأعوان»[١].

وقال أحدهم:

إن الملـوك ليحكمـون عـلى الـورى ... وعـلى الملـوك لـتحكم العلـماء[٢]

* * *

(١) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٨/ ٣٨٤).

(٢) (كيف نتحمس لطلب العلم؟) لأبي القعقاع محمد بن صالح آل عبد الله ص (٩٧).

الباب الرابع

هيبة[1] العلماء

- وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[2].

- قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ الآية[3].

- قال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي -رحمه الله-: «وقرأ علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وابن السميفع «ويعززوه» بزاءين، وتوقروه: أي: تعظموه وتبجلوه»[4].

- وقال العلامة صديق حسن -رحمه الله-: «ومعنى (تعزروه): تعظموه أو تفخموه. قاله الحسن. والتعزير: التوقير والتعظيم. وقال السدي: تسودوه. وقال ابن عباس -رضي الله عنهما-: يعني: التعظيم»[5].

- وقال الشيخ السعدي -رحمه الله-: «أي: تعظموه وتجلوه، وتقوموا بحقوقه؛ كما

---

(١) المهابة: «هي الإجلال والمخافة. وقيل: هب الناس يهابوك أي: وقرهم يوقروك. ويقال: هاب الشيء يهابه: إذا خافه وإذا وقره وعظمه»، انظر (لسان العرب) لابن منظور (١/ ٧٨٩-٧٩٠)، وقال ابن القيم في (المدارج) (١/ ٥١٣): «وأما الهيبة: فخوف مقارن للتعظيم والإجلال، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة»، وقال أيضًا -رحمه الله-: «إن المهابة أثر من آثار امتلاء القلب بعظمة الله ومحبته وإجلاله، فإذا امتلأ القلب بذلك حلّ فيه النور ونزلت عليه السكينة، وألبس رداء الهيبة، فاكتسى وجهه الحلاوة والمهابة، فأخذ بمجامع القلوب محبة ومهابة، فحنت إليه الأفئدة، وقرت به العيون، وأنست به القلوب، فكلامه نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، وعمله نور، وإن سكت علاه الوقار، وإن تكلم أخذ بالقلوب والأسماع». قاله العلامة ابن القيم -رحمه الله- (الروح) ص (٢٨٧): «قال بعضهم: من أمارات المعرفة بالله حصول الهيبة، فمن زادت معرفته زادت هيبته» (حاشية آداب السامع) لابن جماعة ص (١٣٨).

(٢) سورة «النور» الآية (٦٢).

(٣) سورة «الفتح» الآية (٨، ٩).

(٤) (زاد المسير في علم التفسير) لأبي الفرج ابن الجوزي (٧/ ٤٢٧).

(٥) (فتح البيان) لصديق حسن خان (١٣/ ٩٢-٩٣).

كانت له المنة العظيمة في رقابكم»[١].

– في «صحيح مسلم» **عن أبي هريرة** – رضي الله عنه – **قال:** قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: «**سلوني**»، فهابوه أن يسألوا ...»[٢].

– **وعن إياد بن أبي رقية** – رضي الله عنه – **قال:** «انطلقت مع أبي نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأيته قال لي: هل تدري من هذا؟ قلت: لا. قال: إن هذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فاقشعررت حين قال ذلك، وكنت أظن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– شيئًا لا يشبه الناس فإذا هو بشر ذو وفرة[٣] بها ردع[٤]»[٥].

وذكروا من وصفه[٦]: «السكينة والشجاعة، مع الهيبة والتعظيم، الداعية إلى التقديم والتسليم وكان صلى الله عليه وسلم أعظم مهيبًا في النفوس، حتى ارتاعت رسل كسرى من هيبته حين أتوه مع اعتيادهم لصولة الأكاسرة ومكاثرة الملوك الجبابرة، فكان صلى الله عليه وسلم في نفوسهم أهيب، وفي أعينهم أعظم، وإن لم يتعاظم بأبهة، ولم يتطاول بسطوة، بل كان بالتواضع موصوفًا، وبالوطأة – أي السهولة – معروفًا» اهـ.

– وفي «صحيح البخاري» أيضًا، قال هرقل بعد أن استدل على أمارات نبوته – صلى الله عليه وسلم–: «فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه» وفيه أيضًا قال أبو سفيان – رحمه الله –: «لقد بلغ أمر ابن أبي كبشة[٧] أنه يخافه ملك بني الأصفر»[٨].

---

(١) (تيسير الكلام الرحمن) للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (٧/ ٩٦).

(٢) (صحيح مسلم) كتاب الفضائل «باب وجوب ترك كثرة سؤاله –صلى الله عليه وسلم– برقم (٢٣٥٩).

(٣) الوفرة: شعر الرأس إذا كان إلى شحمة الأذن.

(٤) الردع: أثر الصبغ على الجسم وغيره.

(٥) أفاده بن الأثير كما في (جامع الأصول) (٤/ ٧٤٠) باب من جاء وعليه بردان أخضران – رواه أبو داود برقم (٤٢٠٦) مختصرًا، ورواه النسائي (٨/ ١٤٠)، وكذا الإمام أحمد (٢/ ٢٢٦)، وأيضًا البيهقي في (دلائل النبوة) (١/ ٢٣٧)، واللفظ له، وصححه العلامة الألباني كما في (صحيح سنن أبي داود) برقم (٣٥٤٣).

(٦) (موسوعة نضرة النعيم) (١/ ٤٣٩).

(٧) قال الحافظ – رحمه الله –: «قوله «أمر» –بفتح الهمزة وكسر الميم– أي: عظم. و(ابن أبي كبشة) أراد به النبي – صلى الله عليه وسلم–؛ لأن أبا كبشة أحد أجداده، وعادة العرب إذا انتقصت، نسبت إلى جد غامض» انظر (الفتح) للحافظ (١/ ٤٠).

(٨) (صحيح البخاري) كتاب بدء الوحي من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – برقم (٧).

قال الحافظ -رحمه الله-:

«قوله (لغسلت عن قدمه) مبالغة في العبودية -أي: التذلل له والخدمة»[(١)].

- وفي حديث قبلة بنت مخرمة التميمية -رحمها الله-:

«...فلما رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جالسًا القرفصاء أرعدت من الفرق»[(٢)] وذلك من هيبته صلى الله عليه وسلم.

- وعن البراء -رضي الله عنه- قال:

«إن كنا ليأتي علي السنة أريد أن أسأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الشيء فأتهيب، وإن كنا لنتمنى الأعراب ليسألوا فيسمعوا أجوبة سؤالات الأعراب فيستفيدوها»[(٣)].

- قال العلامة المناوي -رحمه الله-: «كانت له صلى الله عليه وسلم مهابة»[(٤)].

وقد مكث ابن عباس سنتين يهاب سؤال عمر -رضي الله عنه- عن مسألة[(٥)].

- قال عمر بن ميمون -رحمه الله-:

«شهدت عمر -رضي الله عنه- يوم طعن، فما منعني أن أكون في الصف الأول إلا هيبته، وكان رجلًا مهيبًا»[(٦)].

- وفي صفة عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال الحافظ شمس الدين الذهبي -رحمه الله-:

«وكان وسيمًا جميلًا، مديد القامة، مهيبًا، كامل العقل، ذكي النفس، من رجال الكمال»[(٧)].

- وقال سعيد بن المسيب -رحمه الله-: «قلت لسعد بن مالك -رضي الله عنه-: إني أريد أن

(١) انظر (فتح الباري شرح صحيح البخاري) للحافظ ابن حجر (١/ ٣٧).

(٢) (الإصابة) للحافظ ابن حجر (٨/ ٢٩٠-٢٩١).

(٣) (فتح الباري) (١٣/ ٢٦٦) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة وعزاه الحافظ ابن حجر -رحمه الله- إلى أبي يعلى.

(٤) (فيض القدير) للمناوي (٢/ ٥٧٠).

(٥) (مسند الإمام أحمد) (١/ ٤٨)، و(جامع بيان العلم) (١/ ١١١)، ولكن في (صحيح البخاري) (٨/ ٦٥٧)، و(مسلم) (٢/ ١١٠٨)، و(الفقيه والمتفقه) للخطيب (٢/ ٩٩)، (سنة) كذا في (فتح المغيث) للسخاوي (٣/ ٢٨٧).

(٦) (فتح الباري) للحافظ ابن حجر (٧/ ٦٣).

(٧) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٣/ ٣٣٣).

أسألك عن شيء وإني أهابك»[(١)].

- **وقال عبد الرحمن بن حرملة الأسلمي** - رحمه الله -: «ما كان إنسان يجترئ أن يسأل سعيد بن المسيب عن شيء حتى يستأذنه كما يستأذن الأمير»[(٢)].

- **قال أيوب السختياني** - رحمه الله -:

«كان الرجل يجلس إلى الحسن ثلاث حجج ما يسأله عن المسألة هيبة له»[(٣)].

- **وقال مغيرة بن مقسم الضبي** - رحمه الله -:

«كنا نهاب إبراهيم النخعي كما يهاب الأمير»[(٤)].

- **وعن ابن مهدي** - رحمه الله - **قال:**

«ما رأيت أحدًا أهيّب، ولا أتم عقلًا من مالك، ولا أشدّ تقوى»[(٥)].

- **قال القطان** - رحمه الله -:

«دخلت المدينة سنة أربع وأربعين ومائة ومالك أسود الرأس واللحية والناس حوله سكوت لا يتكلم أحد هيبة له»[(٦)].

- **وقال الحسن بن ربيع البداري** - رحمه الله -:

«كنت على باب مالك فنادى مناديه ليدخل أهل الحجاز، فما دخل إلا هم، ثم نادى في أهل الشام، في أهل العراق، فكنت آخر من دخل وفينا حماد بن أبي حنيفة فقال: السلام عليكم ورحمة الله، قال: فأومأ الناس إليه بأيديهم أن اسكت،فقال: أفي صلاة نحن فلا نتكلم؟!!»[(٧)].

- **وقال يونس بن تميم** - رحمه الله -: «قدمت المدينة سنة ستين ومائة فأتيت مالكًا، فلما

---

(١) (جامع بيان العلم) (١/ ١١٢) (مسند الإمام أحمد) (١/ ١٧٣) (فتح المغيث) للسخاوي (٣/ ٢٨٧).

(٢) (الجامع) للخطيب (١/ ١٨٤) و(فتح المغيث) للسخاوي (٣/ ٢٨٧).

(٣) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٤/ ٥٧٣).

(٤) (طبقات ابن سعد) (٦/ ٢٧١)، (فتح المغيث) للسخاوي (٣/ ٢٨٨)، و(سنن الدارمي) (١/ ٩٢)، و(الجامع) للخطيب (١/ ١٨٤)، و(المدخل) للبيهقي (٣٧٨).

(٥) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٨/ ١١٣).

(٦) (ترتيب المدارك) للقاضي عياض (١/ ٨٣).

(٧) (ترتيب المدارك) للقاضي عياض (١/ ٨٣).

نظرت إليه هبته، ولم أتقدم إليه، ورأيت الناس يهابونه، فأقمت أتردد عشرة أيام، فشكوت ذلك لبعض أهل المدينة، فقيل لي: أعطّ كاتبه يسأل لك عما أحببت، وأما أنت فلا أحسب تتهيأ لك مساءلته؛ لأنه أهيب من ذلك في صدور الناس»[(١)].

- **وقال الإمام الشافعي** -رحمه الله-: «كنت أصفح الورقة بين يدي مالك -رحمه الله- صفحًا رقيقًا هيبةً له لئلا يسمع وقعها»[(٢)].

- **وقال الربيع** -رحمه الله- **هو ابن سليمان صاحب الشافعي وتلميذه المشهور**: «والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلي هيبة له.»[(٣)].

- **وقال أبو عاصم** -رحمه الله-: «كنا عند ابن عون يحدّث فمرّ بنا إبراهيم بن عبد الله بن حسن في موكبه - وهو إذ ذاك يدعى إمامًا بعد قتل أخيه محمد - فما جسر أحد أن يلتفت للنظر إليه فضلًا عن أن يقوم هيبة لابن عون»[(٤)].

- **وقال أبو أحمد محمد بن عبد الوهاب الفراء** -رحمه الله-: «كنا نهاب أبا نعيم -رحمه الله- أشد من هيبة الأمير»[(٥)].

- **وقال أحمد بن سنان** -رحمه الله-: «كان عبد الرحمن بن مهدي لا يتحدث في مجلسه ولا يقوم أحد ولا يبري فيه قلم، ولا يتبسم أحد، وكان وكيع يكونون في مجلسه كأنهم في صلاة..»[(٦)].

- **وقال الإمام أحمد** -رحمه الله-: «لزمت هشيمًا أربع سنين، ما سألته عن شيء إلا مرتين هيبة له وكان كثير التسبيح بين الحديث يقول «لا إله إلا الله» يمدّ بها صوته»[(٧)].

- **قال عبد الله بن الإمام أحمد -رحمهما الله-**: سمعت أبي يقول: «قدمت صنعاء أنا

---

(١) (ترتيب المدارك) للقاضي عياض (١/ ٨٦).
(٢) (المجموع شرح المهذب) للإمام النووي (١/ ٣٦) (آداب السامع والمتكلم) ص (١٣٧).
(٣) (آداب السامع والمتكلم) لابن جماعة الكناني ص (١٣٧).
(٤) (فتح المغيث) للسخاوي (٣/ ٢٨٨) و(الجامع) للخطيب (١/ ١٨٥).
(٥) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١٠/ ١٥١).
(٦) (سير أعلام النبلاء) للحافظ مؤرخ الإسلام شمس الدين الذهبي (٩/ ١٥٤).
(٧) (تذكرة الحفاظ) للحافظ شمس الدين الذهبي (١/ ١٥٤).

ويحيى بن معين، فمضيت إلى عبد الرزاق في قريته، وتخلف يحيى فلمّا ذهبت أدقّ الباب، قال لي بقال تجاه داره: مه ..لا تدق فإن الشيخ يهاب، فجلست حتى إذا كان قبل المغرب خرج، فوثبت إليه وفي يدي أحاديث انتقيتها، فسلّمت وقلت: حدثني بهذه – رحمك الله– فإني رجل غريب.

قال: «ومن أنت وزبرني؟ قلت: أنا أحمد بن حنبل. قال فتقاصر وضمني إليه وقال: بالله أنت أبو عبد الله، ثم أخذ الأحاديث وجعل يقرؤها حتى أظلم، فقال للبقال: هلمّ المصباح...»[(١)].

– **وقال إسحاق الشهيدي** –رحمه الله–: «كنت أرى يحيى القطان يصلي العصر، ثم يسند إلى أصل منارة المسجد، فيقف بين يديه أحمد بن حنبل وابن معين وابن المديني والشازكوني والفلاس على أرجلهم، يسألون عن الحديث، إلى أن تحين صلاة المغرب لا يقول لواحد منهم اجلس، ولا يجلسون هيبة له وإعظامًا»[(٢)].

– **قال جعفر بن محمد الحافظ –رحمه الله تعالى–**: «ما رأيت في المحدثين أهيب من محمد بن رافع –رحمه الله– كان يستند إلى شجرة الصنوبر في داره، فيجلس العلماء بين يديه على مراتبهم، وأولاد الطاهرية ومعهم الخدم كأن على رؤوسهم الطير»[(٣)].

– **قال المروذي** –رحمه الله–: «قال جارنا فلان دخلت على إسحاق بن إبراهيم الأمير وفلان وفلان ذكر سلاطين ما رأيت أهيب من أحمد بن حنبل صرت إليه أكلمه في شيء فوقعت علي الرعدة من هيبتة».

ثم قال المروذي –رحمه الله–: «ولقد طرقة الكلبي صاحب خبر السر ليلًا فمن هيبته لم يقرعوا، ودقوا باب عمه»[(٤)].

–**قلت – أي الحافظ الذهبي** –رحمه الله–: «كان أحمد عظيم الشأن، رأسًا في الحديث وفي

---

(١) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١١/ ١٩٢).

(٢) (فتح المغيث) للسخاوي (٣/ ٢٨٨) وقد عزاه إلى (الجامع) للخطيب (١/ ١٨٥).

(٣) حاشية (تذكرة السامع والمتكلم) لابن جماعة الكناني (٢٠٧).

(٤) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١١/ ٣١٧).

الفقه وفي التأله، أثنى عليه خلق من خصومه، فما الظن بإخوانه وأقرانه، وكان مهيبًا في ذات الله، حتى لقال أبو عبيد: «ما هبت أحدًا في مسألة ما هبت أحمد بن حنبل»[١].

- **قال أبو عبيد القاسم بن سلام - رحمه الله -:**

«جالست أبا يوسف ومحمد بن الحسن ويحيى بن سعيد وعبد الرحمن بن مهدي، فما هبت أحدًا منهم كما هبت أحمد بن حنبل، ولقد دخلت عليه السجن لأسلم عليه، فسألني رجل عن مسألة فلم أجبه هيبة له»[٢].

- **وقال محمد بن مسلم - رحمه الله -:**

«كنا نهاب أن نرد أحمد بن حنبل في الشيء، أو نحاجه في شيء من الأشياء. يعني لجلالته ولهيبة الإسلام الذي رزقه»[٣].

قال الماوردي - رحمه الله -:

«إن العلماء بعلمهم قد استحقوا التعظيم، لا بالقدرة والمال».

قال أبو بكر بن دريد - رحمه الله -:

لا تحقرن عالمًا وإن خلقت	أثوابه في عيون رامقه
وانظر إليه بعين ذي أدب	مهذب الرأي في طرائقه
فالمسك بينا نراه ممتهنًا	بفهر[٤] عطّاره ومساحقه
سوف تراه في عارضي ملك	وموضع التاج من مفارقه[٥]

* * *

(١) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١١/ ٢٠٣).
(٢) (مناقب الإمام أحمد) لأبي الفرج ابن الجوزي ص (٢١٢).
(٣) (مناقب الإمام أحمد) لأبي الفرج ابن الجوزي ص (٢١١).
(٤) حجر ناعم صلب يسحق به الصيدلي أو العطار الأدوية.
(٥) (أدب الدنيا والدين) للماوردي ص (٩٤).

الباب الخامس

تقبيل يد العلماء
كمظهر من مظاهر التوقير والتقدير

وسواء كان التقبيل لليد أو للرأس أو بين العينين أو الكتف أو غير ذلك فالدلالة واضحة، وتعلقه لما نحن بصدده لا يخفى فمن ذلك.

قال العلامة ابن القيم -رحمه الله-: «ولما سأله اليهود عن التسع آيات البينات، فأخبرهم بها قبّلوا يده وقالوا: نشهد أنك نبي. قال: فما يمنعكم أن تتبعوني؟ قالوا: إن داود -عليه السلام- دعا أن لا يزال في ذريته نبي، وإنا نخشى أن اتبعناك أن تقتلنا يهود»[(١)].

- **وعن صفوان ابن عسّال** -رحمه الله-: «أن قومًا من اليهود قبّلوا يد النبي صلى الله عليه وسلم ورجليه»[(٢)].

- **وقال الحافظ** -رحمه الله- **في سياق شرحه لحديث أبي سفيان** -رضي الله عنه- **مع هرقل:** «وفي رواية عبد الله بن شداد عن أبي سفيان، قال هرقل: لو علمت أنه هو لمشيت إليه حتى أقبل رأسه، وأغسل قدميه»[(٣)].

وفي «صحيح البخاري» من حديث أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- **قالت:** «فجاء أبو بكر، فكشف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبله»[(٤)].

- **وعن ابن عمر** -رضي الله عنهما- **قال:** «قبّلنا يد النبي - صلى الله عليه وسلم-»[(٥)].

- **وعن تميم بن سلمة** -رحمه الله- **قال:** «أن أبا عبيدة قبّل يد عمر»، قال تميم: «والقبلة سنة»[(٦)].

---

(١) (مفتاح دار السعادة) للعلامة ابن القيم (١/ ٩٣).

(٢) (مصنف ابن أبي شيبة) (٨/ ٥٦١-٥٦٢) كتاب الأدب.

(٣) انظر (فتح الباري شرح صحيح البخاري) للحافظ ابن حجر (١/ ٣٧).

(٤) (صحيح البخاري) برقم (٣٦٦٧) كتاب فضائل الصحابة(باب فضل أبي بكر بعد النبي - صلى الله عليه وسلم- وفيه قصة.

(٥) (مصنف ابن أبي شيبة) (٨/ ٥٦١-٥٦٢) كتاب الأدب، و(الجامع) للخطيب (١/ ١٨٩).

(٦) (مصنف ابن أبي شيبة) (٨/ ٥٦١-٥٦٢) انظر أيضًا (السنن الكبرى) للبيهقي (٧/ ١٠١).

– **وقال سعيد بن جبير** –رحمه الله–: «كان ابن عباس –رضي الله عنهما– يحدثني بالحديث، فلو يأذن أن أقبل رأسه لقبلت»[١].

– وعن سفيان بن عيينة، عن مالك، عن طلحة –رحمهم الله– قال: «قبّل خيثمة يدي»، قال مالك: «وقبّل طلحة يدي»[٢]. اهـ. ابن أبي شيبة.

– **قال إبراهيم بن الأشعث** –رحمه الله–:

«رأيت سفيان بن عيينه يقبّل يد الفضيل مرتين»[٣].

– **وقال موسى بن داود** –رحمه الله–:

«كنت عند ابن عيينة فجاء حسين الجعفي فقام سفيان فقبل يده»[٤].

– **قال عاصم بن أبي النجود** –رحمه الله–:

«ما قدمت على أبي وائل من سفر إلا قبّل كفي»[٥].

–**وقال أبو حاتم الرازي** –رحمه الله–:

«ما رأيت أحدًا أعظم قدرًا من أبي مسهر كنت أراه إذا خرج إلى المسجد، اصطفّ الناس يسلمون عليه ويقبلون يده»[٦].

– **قال محمد بن أحمد بن عمر بن عيسى** –رحمه الله– **سمعت أبي يقول:**

«ما رأيت مجلسًا يجتمع فيه المشايخ، أنبل من مشايخ اجتمعوا في مسجد بالكوفة في وقت الامتحان –أي: امتحان الناس في فتنة خلق القرآن– فقرأ عليهم الكتاب الذي فيه المحنة، فقال أبو نعيم: «أدركت ثمان مائة شيخ ونيفًا وسبعين شيخًا، منهم الأعمش فما دونه، ما رأيت خلقًا يقول بهذه المقالة –يعني: بخلق القرآن– ولا تكلم أحد بهذه المقالة إلا رمي بالزندقة»، فقام أحمد بن يونس فقبل رأس أبي نعيم، وقال: «جزاك الله

---

(١) (الجامع) للخطيب البغدادي (١/ ١٩٠).

(٢) (مصنف ابن أبي شيبة) (٨/ ٥٦١-٥٦٢).

(٣) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٨/ ٤٣٨).

(٤) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٩/ ٣٩٨).

(٥) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٥/ ٢٥٧).

(٦) (سير أعلام النبلاء) للحافظ مؤرخ الإسلام شمس الدين الذهبي (١٠/ ٢٢٨).

عن الإسلام خيرًا»، وفي رواية: «فقام أحمد بن يونس فقبل رأسه، وكان بينهما شحناء، وقال: جزاك الله من شيخ خيرًا»[١].

- **قال عبد الله بن الإمام أحمد -رحمهما الله- قال:**

«رأيت كثيرًا من العلماء والفقهاء والمحدثين وبني هاشم وقريش والأنصار يقبّلون أبي، بعضهم يده، وبعضهم رأسه، ويعظمونه تعظيمًا لم أرهم يفعلون ذلك بأحد من الفقهاء غيره، ولم أره يشتهي ذلك»[٢].

- **وقال مهنى -رحمه الله-:**

«رأيت أبا عبد الله مرات يقبل وجهه ورأسه، ولا يقول شيئًا، ولا يمتنع ورأيت سليمان بن داود الهاشمي يقبل رأسه وجبهته لا يمتنع من ذلك ولا يكرهه»[٣].

- **قال صالح بن الإمام أحمد -رحمه الله-:**

«وحضر نحو مئة من بني هاشم ونحن نكفنه - أي: الإمام أحمد -رحمه الله- وجعلوا يقبلون جبهته حتى رفعناه على السرير»[٤].

- **وقال محمد بن حمدون بن رستم -رحمه الله-:**

«سمعت مسلم بن الحجاج وجاء إلى البخاري فقال: «دعني أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدثين، وطبيب الحديث في علله»[٥].

- وكان الشيخ شمس الدين الديروطي -رحمه الله- صاحب البرج بدمياط- إذا مرّ على فقيه ينزل من دابته ويسوقها أمامه، ويقبل يده، ثم لا يركب حتى يبعد عنه جدًا ويتوارى عنه بجدار أو نحوه، مع أنه بلغ في العلم الغاية وشرح (المنهاج) وغيره»[٦].

- **وتقدمت الوصية كما في «فتح المغيث» حيث قال:**

---

(١) (مناقب الإمام أحمد) للإمام أبي الفرج ابن الجوزي ص (٣٩٥-٣٩٦).

(٢) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١١/ ٣٠٤).

(٣) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١١/ ٣١٨).

(٤) (سير أعلام النبلاء) لمؤرخ الإسلام الحافظ شمس الدين الذهبي (١١/ ٣٣٨).

(٥) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١٢/ ٤٣٢).

(٦) (الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام) للشيخ محمد بن إسماعيل ص (٢١٢).

«وسيّده، وقم له[١] إذا قدم عليك، واقضي حوائجه كلها جليلها وحقيرها، وخذ بركابه، وقبّل يده، ووقّر مجلسه»[٢].

هذا .. ولا نزال نرى هذه الصورة حية في رياض حلق المشايخ من تقبيل رأس ويد تقديرًا لهم وتوقيرًا واعترافًا لهم بالفضل وإقرارًا لهم بالجميل.

* * *

(١) على تفصيل معروف عند أهل العلم.

(٢) (فتح المغيث) للعلامة السخاوي (٣/ ٢٨٩) بتصرف يسير.

الباب السادس

الإقرار لهم بالفضل والاعتراف لهم بالجميل

إن من هجنة العلم ووحشته ونكده، أن يثغر الطالب أو يبقل وجهه في العلم ويشتد ساعده فيه بين يدي شيخه، ثم هو بعد ذلك يبارزه بالطعن من مخالفة له أو تجهيل.

فالرشيد ذو المروءة يرجع الفضل لأهله ويعزو الخير إلى مسديه، لا نقول اسكت على خطأ من الشيخ، وإنما القول بيان الحق بالطرق الأخلاقية، والسياسة الأدبية، مع التسربل بسربال التقوى.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[(٢)]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[(٣)] وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[(٤)] وصحّ عن نبينا -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «**من لم يشكر الناس، لم يشكر الله**»[(٥)].

- **وقال شيخ الإسلام** -رحمه الله-: «وإذا كان الرجل قد علمه أستاذ، عرف قدر إحسانه إليه وشكره»[(٦)].

- **قال ابن جماعة** -رحمه الله-: «أن يشكر الشيخ على توقيفه على ما فيه فضيلة، وعلى توبيخه على ما فيه نقيصة، أو على كسل يعتريه أو قصور يعانيه.. وإذا أوقفه الشيخ دقيقة من أدب، أو نقيصة منه وكان يعرفه من قبل، فلا يظهر أنه كان عارفًا به وغفل عنه، بل يشكر الشيخ على إفادته ذلك واعتنائه بأمره»[(٧)].

---

(١) سورة «النحل» الآية (٥٣).

(٢) سورة «النور» الآية (٢١).

(٣) سورة «آل عمران» الآية (١٦٤).

(٤) سورة «البقرة» الآية (٢٣٧).

(٥) رواه الإمام أحمد (٢/ ٢٥٨) والترمذي (١٩٥٥) وهو في (الصحيحة) برقم (٤١٧).

(٦) (مجموع الفتاوى) لشيخ الإسلام (٢٨/ ١٧).

(٧) قال الإمام الذهبي -رحمه الله- في صفة تدريس الإمام مالك -رحمه الله-: «وكان الغرباء يسألونه عن الحديث فلا يجيب =

- قال الخطيب البغدادي -رحمه الله-: «وكذا يجب على المتعلم الاعتراف بفضل الفقيه، والإقرار بأن العلم من جهته اكتسبه، وعنه أخذه»[(١)].

- قال أبو عبيد القاسم بن سلام -رحمه الله-: «من بركة العلم عزوه لقائله»[(٢)].

- وقال ابن وهب -رحمه الله-: «لولا أني أدركت مالكًا والليث لضللت»[(٣)].

- وكان أبو يحيى زكريا بن يحيى بن إبراهيم -رحمه الله-: «كان إذا حدث عن ابن وهب قال: «حدثني سيدي ابن وهب»[(٤)].

- قال محمد بن الحكم -رحمه الله-: «كان الشافعي دهره إذا سئل عن الشيء، يقول: هذا قول الأستاذ - يريد مالكًا»[(٥)] وقال مرة: «مالك أستاذي، مالك معلمي، وعنه أخذنا العلم»[(٦)].

- قال الفضل بن زياد -رحمه الله-: «سمعت الإمام أحمد رحمه الله- يقول: ما أحد مسّ محبرة أو قلمًا إلا والشافعي في عنقه منّة»[(٧)].

- قال الإمام أحمد -رحمه الله-: «هذا الذي ترونه -أو عامته- مني، هو عن الشافعي»[(٨)].

- قال الحافظ عبد الغني -رحمه الله-: «لمّا رددت على أبي عبد الله الحاكم الأوهام التي في «المدخل على الصحيحين» بعث إلي يشكرني، ويدعو لي، فعلمت أنه رجل عاقل»[(٩)].

= إلا في الحديث بعد الحديث، وربما أذن لبعضهم يقرأ عليه، وكان له كاتب قد نسخ كتبه يقال له حبيب يقرأ للجماعة فليس أحد ممن يحضره يدنو، ولا ينظر في كتابه، ولا يستفهم هيبة لمالك وإجلالًا، وكان إذا أخطأ حبيب فتح عليه مالك».

وعن مصعب الزبيري قال: «سأل هارون مالكًا وهو في منزله ومعه بنوه أن يقرأ عليهم»، فقال: «ما قرأت على أحد منذ زمان، وإنما يقرأ علي». فقال هارون: «أخرج الناس حتى أقرأ أنا عليك»، فقال: «إذا منع العلم لبعض الخاصّة لم ينتفع الخاص، وأمر معن بن عيسى فقرأ».

(١) (الفقيه والمتفقه) للخطيب البغدادي (٢/ ١٣٤).

(٢) (الردود والتعقبات) لمشهور بن حسن ص (٤٠).

(٣) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (٨/ ٧٥).

(٤) (ترتيب المدارك) للقاضي عياض (١/ ٣٣٥).

(٥) (ترتيب المدارك) للقاضي عياض (١/ ٦٢).

(٦) (ترتيب المدارك) للقاضي عياض (١/ ٦٨) و(سير أعلام النبلاء) للحافظ الذهبي (٨/ ٧٥).

(٧) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي (١٠/ ٤٧).

(٨) (النبذ في آداب طالب العلم) لحمد بن إبراهيم العثمان ص (٩٢) وعزاه إلى (الانتقاء) للحافظ ابن عبد البر ص (٧٦).

(٩) (سير أعلام النبلاء) للحافظ شمس الدين الذهبي -رحمه الله- (١٧/ ٢٧٠).

وقال كما في «المنتظم»: «لمّا وصل كتابي الذي عملته في أغلاط أبي عبد الله الحاكم أجابني بالشكر عليه، وذكر أنه أملاه على الناس، وضمن كتابه إليّ الاعتراف بالفائدة وبأنه لا يذكرها إلا عني»[١].

- قال الحافظ صلاح الدين العلائي في شيخ الإسلام -رحمهما الله-:

«أخبرنا شيخنا وسيدنا شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن تيمية»[٢].

- قال مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي عن الإمام شمس الدين ابن عبد الهادي -رحمهما الله:

«والله ما اجتمعت به قط إلا واستفدت منه»[٣].

- قال الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي -رحمه الله-:

«ولعل بعض من ينظر فيما سطرناه ويقف على ما لكتابنا هذا ضمناه يلحق سيء الظن بنا، ويرى أنا عمدنا للطعن على ما تقدمنا وإظهار العيب لكبراء شيوخنا وعلماء سلفنا.

وأنى يكون ذلك، وبهم ذكرنا، وبشعاع ضيائهم تبصرنا، وباقتفائنا واضح رسومهم تميّزنا، وبسلوك سبيلهم عن الهمج تحيّزنا، وما مثلهم ومثلنا إلا ما ذكر أبو عمرو ابن المعلا: «ما نحن فيما مضى إلا كبقل في أصول نخل طوال»[٤].

إذا أفـــادك إنـــسان بفائـــدة ... مـــن العلـــوم فـــأدمن شـــكره أبـــدًا
وقـــل فـــلان جـــزاه الله صـــالحة ... أفادنيهـــا وألـــق الكـــبر والحـــسد[٥]

* * *

(١) (المنتظم) لابن الجوزي (٧/ ٢٩١) نقلًا عن (نماذج من رسائل لأئمة السلف وأدبهم العلمي) للشيخ عبد الفتاح أبو غدة -عفا الله عنه- ص (٥٧).

(٢) (الرد الوافر) لابن ناصر الدين الدمشقي ص (١٧٤).

(٣) (الرد الوافر) لابن ناصر الدين الدمشقي ص (٦٤).

(٤) (فاتحة كتاب موضح أوهام الجمع والتفريق) والنقل عن (نماذج من رسائل لأئمة السلف وأدبهم العلمي) للشيخ عبد الفتاح أبو غدة -عفا الله عنه- ص (٥٧-٥٨).

(٥) (طبقات الحنابلة) (٢/ ٨٧) والنقل عن (معالم في طريق طلب العلم) للسدحان ص (٢٥٣).

خاتمة البحث

تلكم كانت شذرات من صور ومواقف لسلفنا الصالح، فاز فيها أهل العلم بالشرف والسؤدد، وذلك نصيبهم من إرث الرسالة، وميراث النبوة، حاذوا فيها درجة الصدق في حمل الأمانة، فصاروا أئمة هدى بحق وصدق. كانت نبذ من سيرة هذا الموكب الجليل والركب العظيم في سيرهم إلى الله تعالى مع مشايخهم وأقرانهم وتلامذتهم: محبةً وتقديرًا واحترامًا وإجلالًا. مع ما تحلوا به من أرقى المعالي وأحسن المحاسن، فلله درهم، أي نفوس كانت، وأي قلوب تلك ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، وفيهم وفي أشباههم نتمثل قول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا...﴾، وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أقول: ولقد ضرب سلفنا الصالح صورًا رائعة رائقة في سلوك النهج القويم، والمنهاج المستقيم، في التعامل مع سادة البشر -العلماء- فكانوا أنموذج فريد في ترجمته، وقدوة صالحة لمن بعدهم في تطبيقه، فكانوا لأسلافهم نعم الخلف ولنا نعم السلف -رحمهم الله تعالى- بل لما رأوا أتباعهم ما رأوا من حالهم مع أشياخهم صاروا في ذلك على منوالهم، واقتفوا آثارهم، فانتفعوا بعلومهم، وتأدبوا بآدابهم، وهكذا دواليك، وبذا انتظم هذا العقد الفريد جيلًا بعد جيل، إرثًا مباركًا طيبًا نافعًا إلى زماننا، هذا والخيرية في الأمة باقية، والعطاء موصول، والحمد لله.

فعلى المسلم الناصح لنفسه الراجي رحمة ربه، أن يرجع إلى فهم العلماء في شأنه كله، ولا ينبغي التقدم عليهم، فإن الحق غالبًا لا يفارقهم، يلزم غرزهم، ويستضيء بقولهم، ويستنير بعلمهم، ويستهدي بهديهم؛ فإن الإعراض عن فهم علماء الأمة سلفًا وخلفًا يفتح باب الضلالة، وقد يؤول بصاحبه إلى الانسلاخ من الهدي، والوقوع في شرك الغواية، وياله من واد سحيق، نسأل الله العافية والسلامة، ونسأله أن يمتعنا بسلوك سبيل سلفنا الصالح ويحشرنا في ذريتهم غير مبدلين ولا محرفين -آمين-.

وعلى ما تقدم، فليتق الله امرئ يستخف بالعلم وأهله، أما علم المُسَيْكين ما تواترت به الأخبار في فضلهم وجميل الثناء عليهم، وتعديلهم، والأمر بالرجوع إليهم وإلى أقوالهم، فبهم حفظ الله دينه، فهم حملته ونقلته ورواته، فكان حقهم التعظيم والتعزير، لا الإعراض والتشغيب والتزهيد.

وفي هذه النبذ المدونة بين دفتي سفرنا -وأخواتها كثير- دلالة واضحة ناطقة بل صارخة في بيان عظيم أدب العلماء، وموفور فضلهم، فيا ليت قومي يقتدون.

هذا، واقتضبت من أقوالهم -رحمهم الله- ما دعت الحاجة إليه في هذه الآونة رغبة في النصح، وطمعًا في الاقتداء، وأملًا في عموم النفع.

فاتقوا الله أيها النجباء في علماء الأمة، وأنزلوهم منزلتهم اللائقة بهم، وأنتم أهل فضل، وتعرفون الفضل لأهله فلا تجحدوه ذويه.

فكم كان عظيمًا ما كان عليه القوم، من غزارة العلم، والإنصاف فيه، والانقياد له وبذله، فاستحقوا بحق مقام الإمامة في الدين، وسادوا في الحياة، وعمّروا بعد المهات، تزينت الرسائل بأسمائهم، وتجملت الأسفار بجميل عبارتهم، واستنارت العقول بعلومهم، واستضاءت الأفهام بفقههم، فرحمة الله على تلكم النفوس الذكية، وألحقنا بهم مع خير البرية.

ولا يخفى أن مادة هذا الطرح ثرية، ومتونه قوية غنية، إلا أن الحاجة إلى الإفادة، دعت إلى الإشارة دون تطويل العبارة، وفيها الكفاية لمن عقل وعلى سبيل سلفه سلك، وإن تيسر الأمر وكانت فسحة في العمر نتدارك ما غبر.

والله الهادي إلى سواء السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل، والحمد لله رب العالمين،
- ورحم الله من ترحم علينا -.

* * *

فهرس المراجع

- **القرآن الكريم/** مجمع الملك فهد.

- **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم/** وضعه: محمد فؤاد عبد الباقي-توزيع مكتبه المعارف.

- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن/** الإمام ابن جرير الطبري -دار الفكر.

- **تفسير القرآن العظيم/** للحافظ ابن كثير - دار المعرفة.

- **الجامع لأحكام القرآن/** للإمام عبد الله محمد الأنصاري القرطبي - مكتبة الرياض الحديثة.

- **زاد المسير في علم التفسير/** للإمام أبي الفرج ابن الجوزي - المكتب الإسلامي.

- **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير/** للعلامة محمد بن علي ابن محمد الشوكاني - دار إحياء التراث العربي.

- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/** للشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي -مركز صالح بن صالح الثقافي.

- **فتح الباري شرح صحيح البخاري/** للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - دار الفكر.

- **دليل القاري إلى مواضع الحديث في صحيح البخاري/** وضعه الشيخ: عبد الله بن محمد الغنيمان - مؤسسة الرسالة.

- **غبطة القاري ببيان إحالات فتح الباري/** وضعه: أبو صهيب صفاء الضوي أحمد العدوي - مكتبة ابن تيمية - مكتبة العلم بجدة.

- **شرح صحيح مسلم/** للإمام محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي - مكتبة الوراق - دار الخير.

- **سنن أبي داود/** للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني -دار الحديث بسوريا.

- **سنن النسائي/** بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية السندي/ حققه: مكتب تحقيق التراث الإسلامي - دار المؤيد.

- **سنن ابن ماجة/** بشرح الأمام أبي الحسن الحنفي المعروف بالسندى/ حققه الشيخ خليل مأمون شيحه - دار المؤيد.

- **جامع الترمذي/** تحقيق الشيخ العلامة أحمد بن محمد شاكر - دار إحياء التراث العربي.

- **مسند الإمام أحمد/** تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر - دار المعارف بمصر.

- **صحيح سنن أبي داود/** للعلامة الشيخ الألباني-مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.

- **المصنف/** للحافظ الكبير أبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني/ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي -المكتب الإسلامي.

- **الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار/** للحافظ أبي بكر ابن أبي شيبة - الدار السلفية.

- **جامع الأصول في أحاديث الرسول/** للإمام المبارك بن محمد بن الأثير الجزرى - دار الفكر.

- **سلسلة الأحاديث الصحيحة/** للعلامة الشيخ الألباني- المكتب الإسلامي.

- **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء على الأمة/** للعلامة الشيخ الألباني.

- **صحيح الجامع/** للعلامة محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي.

- **صحيح الترغيب والترهيب/** للعلامة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني- مكتبة المعارف.

- **رياض الصالحين/** للإمام النووي - تحقيق العلامة الألباني -المكتب الإسلامي.

- **الشفا بتعريف حقوق المصطفى/** للقاضي عياض/ تحقيق: محمد أمين قرة علي - أسامي الرفاعي - جمال السيروان - نور الدين قرة علي - عبد الفتاح السيد/ مكتبة الفارابي.

- **الكامل في ضعفاء الرجال/** للحافظ أحمد بن عبد الله بن عدي الجرجاني/ تحقيق: الشيخان: عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد أ.د: عبد الفتاح أبو سنة - دار الكتب العلمية.

- **تهذيب التهذيب/** للحافظ ابن حجر - مطبعة مجلس دائرة المعارف.

- **الإصابة في تمييز الصحابة/** للحافظ ابن حجر/ تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود - والشيخ علي محمد -دار الكتب العلمية.

- **الطبقات الكبرى/** لابن سعد - مكتبة ابن تيمية.

- **تاريخ بغداد أو مدينة السلام/** للخطيب البغدادي -دار الكتب العلمية.

- **تاريخ الإسلام/** للحافظ شمس الدين الذهبي/ تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري - دار الكتاب العربي.

- **سير أعلام النبلاء/** للحافظ شمس الدين الذهبي -مؤسسة الرسالة.

- **تذكرة الحفاظ/** للحافظ شمس الدين الذهبي - دار الكتب العلمية.

- **نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء/** محمد حسن عقيل موسى - دار الأندلس.

- **البداية والنهاية/** للحافظ ابن كثير - دار الكتب العلمية.

- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/** للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني - دار الكتب العلمية.

- **صفة الصفوة/** لابن الجوزي/ حققه: محمود فاخوري - خرج أحاديثه: د. محمد رواسي قلعة جي - دار المعرفة بيروت.

- **ترتيب المدارك بتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك/** للقاضي أبي الفضل عياض/ ضبطه: محمد سالم هاشم - دار الكتب العلمية.

- **مناقب الإمام أحمد/** للإمام أبي الفرج ابن الجوزي - منشورات دار الآفاق الجديدة.

- **الرد الوافر على من زعم بأن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر/** للحافظ محمد ابن أبي بكر ابن ناصر الدين الدمشقي/ حققه: زهير الشاويش - المكتب الإسلامي.

- **مختصر نصيحة أهل الحديث/** د. يوسف محمد صديق - دار الأصالة.

- **الموقظة/** للحافظ شمس الدين الذهبي - مكتب المطبوعات الإسلامية.

- **الفتوى الحموية الكبرى/** لشيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد ابن تيمية/ تحقيق: حمد بن عبد المحسن التويجري - دار الصميعي.

- **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد/** للإمام الحافظ أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي - مكتبة السوادي بجدة.

- **المجموع شرح المهذب/** للإمام النووي - دار الفكر.

- **فيض القدير شرح الجامع الصحيح/** للعلامة عبد الرؤوف المناوي - دار المعرفة ببيروت.

- **الموسوعة الفقهية/** وزارة الأوقاف الشؤون الإسلامية بالكويت.

- **تذكرة السامع والمتكلم/** لابن جماعة الكناني - تحقيق السيد محمد هاشم الندوي.

- **فتح المغيث لشرح ألفية الحديث للعراقي/** للعلامة أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن السخاوي/ تحقيق: علي حسين علي - مكتبة الإيمان بالمدينة.

- **أدب الدنيا والدين/** للماوردي - دار الريان.

- **مناقب الإمام أحمد/** لأبي الفرج ابن الجوزي - دار الآفاق الجديدة.

- **صيد الخاطر/** لأبي الفرج ابن الجوزي - دار الكتب العلمية.

- **منهاج السنة النبوية/** لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية - دار الكتب العلمية.

- **جامع بيان العلم وفضله/** للحافظ عبد البر/ تحقيق: أبي الأشبال الزهيري - دار ابن الجوزي.

- **اقتضاء العلم العمل/** للخطيب البغدادي/ تحقيق الشيخ العلامة الألباني - المكتب الإسلامي.

- **شرف أصحاب الحديث/** للخطيب البغدادي - مكتبة ابن تيمية.

- **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع/** للخطيب البغدادي/ تحقيق: د.محمود الطحان - مكتبة المعارف بالرياض.

- **الفقيه والمتفقه/** للخطيب البغدادي/ تحقيق: عادل بن يوسف الغرازي - دار ابن الجوزي.

- **الجامع في الحثّ على حفظ العلم/** لأبي هلال العسكري - الخطيب البغدادي - ابن عساكر - ابن الجوزي.

- **بيان فضل علم السلف على علم الخلف/** للحافظ ابن رجب/ حققه: محمد بن ناصر العجمي -دار البشائر الإسلامية.

- **أعلام الموقعين عن رب العالمين/** للعلامة ابن القيم/ تخريج: محمد المعتصم بالله البغدادي - دار الكتاب العربي.

- **مدارج السالكين/** للعلامة ابن القيم/ تحقيق: الشيخ العلامة محمد حامد الفقي - مكتبة السنة المحمدية - توزيع مكتبة ابن تيمية.

- **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة/** للعلامة ابن القيم/ اعتنى به: الشيخ: علي حسن عبد الحميد - دار ابن عفان.

- **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي/** للعلامة ابن القيم/ تحقيق: حسين بن عبد الحميد - دار اليقين للنشر والتوزيع.

- **هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى/** للعلامة الإمام أبي عبد الله شمس الدين ابن القيم/ تحقيق: د. محمد أحمد الحاج - دار القلم.

- **الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة/** للإمام أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكاتب الدينوري/ اعتنيبه: عمر بن محمود - دار الراية.

- **مدارك النظر في السياسة/** للشيخ عبد المالك الجزائري - دار سبيل المؤمنين.

الحقيقة الشرعية في تفسير القرآن العظيم والسنة النبوية/ لمحمد بن عمر بن سالم بازمول - دار الهجرة للنشر والتوزيع.

- **معاملة الحكام في ضوء الكتاب والسنة/** للشيخ عبد السلام برجس بن ناصر آل عبد الكريم - دار سبيل المؤمنين.

- **ردع الجاني المتعدي على الألباني/** لأبي محمد طارق بن عوض الله بن محمد - مكتبة التربية الإسلامية.

- **قواعد في التعامل مع العلماء/** للشيخ عبد الرحمن بن معلا اللويحق - دار الوراق.

- **معالم في طريق طلب العلم/** للشيخ عبد العزيز السدحان - دار العاصمة.

- **من هدي السلف في طلب العلم/** للدكتور: محمد بن مطر الزهراني -دار ابن عفان.

- **الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام/** للشيخ محمد بن إسماعيل - دار طيبة - مكتبة الكوثر.

- **إرشاد الطالب لتحقيق أهم المطالب/** للشيخ سعيد عبد العظيم.

- **العلم بين يدي العالم والمتعلم/** للشيخ جاسم بن محمد مهلهل.

- **نماذج من رسائل لأئمة السلف وأدبهم العلمي/** للشيخ عبد الفتاح أبو غدة - مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب.

- **كتاب الحيوان/** للجاحظ - دار الجيل ببيروت.

- **عيون الأخبار/** عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري/ تحقيق: د.محمد الإسكندراني - دار الكتاب العربي.

- **العقد الفريد/** لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي - دار الكتاب العربي.

- **دائرة المعارف الإسلامية/** شركة سفير.

- **موسوعة نضرة النعيم/** بإشراف الشيخ صالح بن حميد - وعبد الرحمن ملوح - دار الوسيلة.

- **معجم البلدان/** للشيخ شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي البغدادي - دار صادر.

- **تاج العروس من جواهر القاموس/** لمحب الدين أبي الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي/ تحقيق: علي شيري - المكتبة التجارية.

- **لسان العرب/** للعلامة أبي الفضل ابن منظور المصري الإفريقي - دار بيروت.

* * *

مكتب عثمان بن عفان
للصف التصويري والإعداد الفني
جوال: ٠٠٢٠١٢٦٣١١٤٤٨

فهرس الموضوعات

